طبع بمساهمة كريمة من معالي الدكتور مانع سعيد العتيبة
المستشار الخاص لصاحب السمو رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة

الدكتور عبد الله بنصر العلوي

إضاءات علمية في الحضارة الإسلامية

بالمغرب العربي

تصدير ومراجعة

الكتاب: إضاءات علمية في الحضارة الإسلامية بالمغرب العربي
المؤلف: الدكتور عبد الله بنصر العلوي
منشورات: المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق أوسطية والخليجية / كلية الآداب والعلوم الإنسانية /ظهر المهراز /فاس
سنة الطبع: 2017
*** رقم الإيداع القانوني: 2017MO4991**
*** ردمك: 978-9954-99-950-9**
*** جميع حقوق الطبع محفوظة**
*** طبع وتصميم: مطبعة آنفو –برانت، 12 شارع القادسية – الليدو – فاس**
*** الهاتف: 06.61.20.16.41/05.35.64.17.26/ الفاكس 05.35.65.72.47**
***البريد الإلكتروني: infoprintfes@gmail.com**

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء

إلى ابنتي الأستاذة الدكتورة حبيبة

وهي تجدُّ نحو مستقبل علمي حافل

تصدير المـُرَاجع
الدكتور جمال بامي

الكتاب الذي أتشرف بتقديمه إلى القراء اليوم كتاب نفيس، لأنه يضع اليد على إشكالية من أبرز الإشكاليات المعرفية في العالم العربي والإسلامي، وهي تثمين معطيات التاريخ العلمي لاستشراف مستقبل علمي وإنساني زاهر. ذلك أنه من نافلة القول التأكيد على أن ازدهار العلم الغربي اليوم مدين بشكل لا يقبل الجدل للتراث العلمي اليوناني والعربي والغربي كما شهد بذلك مؤرخو العلم الأكثر صرامة ونزاهة..

إن تأليف الدكتور الفاضل عبد الله بنصر العلوي لهذا الكتاب القيم يأتي ضمن سياق اهتمامه بمجالات معرفية حرص فيها -بتعبيره- على "التعريف بإسهام الحضارة العربية والإسلامية في زمن بلغت فيه مدارج الرقي والازدهار، فكان الخوض في غمارها بالقدر الذي استوعبه في تجربة فتحت له مغالق موضوع طالما كان متحفِّزاً على مساءلته في سياق تراثي مجيد وتطلع إلى معاودة التفكير في مظانه المستشرفة لواقع نعيد فيه بناء الذات، ولمستقبل نتطلع فيه إلى الإسهام بدور جديد في عالم يقرُّ بما للحضارة العربية والإسلامية من إمكانيات التجدد والإحياء".

أول ما أثار انتباهي في كتاب الأستاذ الدكتور عبد الله بنصر العلوي: **إضاءات علمية في الحضارة الإسلامية بالمغرب العربي،** أنه ينتقي بدقة شديدة المواضيع والشخصيات العلمية التي يشتغل عليها؛ فهو يعي تمام الوعي أن التأريخ للعلم العربي الإسلامي بشكل عام، والعلم المغربي بشكل خاص، يستدعي التسلح بعدة منهجية مناسبة من أجل حسن اختيار النماذج الأكثر تعبيرا عن العصر والحركة العلمية فيه؛ فكم

من النصوص كتبت حول تاريخ العلوم الإسلامية ثم طواها النسيان، ليس لأنها بحوث يفتقر أصحابها للهمة والاجتهاد والتحقيق، لكن لأنها تفتقر لرؤية منهجية تدمج الرؤية المعرفية الإبستيمولوجية بوعي تاريخي فلسفي يراعي السياق والمآل، ضمن رؤية قصدية تدرس الماضي العلمي عبر أفق الواقع وأفق المستقبل. إن هذا في نظري مقصد نبيل من مقاصد الدراسات حول تاريخ العلوم التطبيقية؛ وأظن أن الأستاذ عبد الله بنصر العلوي نحى في كتابه القيم هذا المنحى المنهجي الواعد.

فبالإطلاع على دراسات كتاب الأستاذ بنصر العلوي يتبين وجود خيط ناظم - معرفي ومنهجي - يجمع بينها، وهو ما ينم عن رؤية علمية ومنهجية مدروسة، وعن مقاصد واضحة في البحث والاستشراف. فقراءة محتوى كتاب الأستاذ بنصر العلوي من قبيل **إسهام علماء القيروان في العلوم الطبية : ابن الجزار نموذجا؛ وثقافة الطفل في التراث العلمي العربي ؛ والفواكه مصدرا للعلاج الطبيعي في التراث الطبي العربي؛ والفواكه بين التراث العربي وعلم التغذية الحديثة**، تدل على حرص الدكتور بنصر العلوي على توسيع دائرة الاهتمام بنصوص يكمل بعضها بعضا؛ فالأستاذ لا يرى فصلا منهجيا بين التعريف بنصوص مختصة في التغذية أو الفواكه أو طب الأطفال، وبين بحثه في **التراث العلمي لجامعة القرويين**، على اعتبار أن هذا المسجد المبارك/ الجامعة يمثل رمزا للتألق المغربي في العلوم الكونية، وما ارتبط بها من ازدهار المدينة الإسلامية والحياة الإنسانية وفق قواعد الاجتماع الإسلامي.

والحال أن المتعمق في بحوث الأستاذ بنصر العلوي في التراث العلمي المغربي، يخرج بانطباع أن الرجل - أمد الله في عمره - وضع لبنة أساسية في هذا المجال، وأنه ساهم في رسم الطريق لجيل من

الباحثين، نرجو أن يضطلع بهذه المهمة التي أضحت ضرورة علمية وتاريخية وحضارية، إذ يتفق مؤرخو الفكر اليوم أنه يصعب تجديد العلوم لرفد الحضارة وإسعاد الناس دون الاستناد على التراث العلمي الذي يحتفظ بعبقرية الأمة وأصالتها المعرفية والإنسانية والأخلاقية..

لقد كان حافز الأستاذ بنصر العلوي، في نشر مداخلاته العلمية في مؤتمرات وطنية ودولية ضمن كتاب تركيبي جامع هو توخيه "أن يجد القارئ فيها مبعث تقديره لتراث الأجداد، وأن يعي بمدى حضوره في الواقع العلمي المعاصر، ليس باعتباره تاريخا مجيدا مضى، بل باعتباره واقعا حيا شديد الموائمة مع الكثير من معطيات علوم الطب والصيدلة كما رامها المحدثون، وكما يطورها المعاصرون، إذ الحضارات لا تموت، ولكنها حية باستمرار في البحث العلمي الجاد الذي يقرُّ بفعالياتها"...

كم هو رائع هذا الربط الذي يقيمه الدكتور عبد الله بنصر العلوي بين تقدير علم الأجداد والتعرف عليه من جهة، وبين إبراز واقعيته وإنسانيته وموافقته لكثير من أسس العلم الكوني المعاصر، على اعتبار استمرار علوم الأولين فينا، وأنه لا يمكن لأي نهضة علمية أن تتحقق في العالم الإسلامي اليوم دون استيعاب التراث العلمي العربي والتعمق في دراسته واستثماره في العلوم المعاصرة...

أسئلة وإشكاليات كبرى يطرحها أستاذنا بنصر العلوي في كتابه القيم هذا، فاتحا بذلك آفاقا واسعة لبحث علمي ثري ونبيل، لو تيسرت له الشروط الذاتية والموضوعية لتحقيقه لساهم بحق في ربط الماضي العلمي العظيم للمغرب العربي بحاضر مشوب بكثير من الأعطاب النظرية والتطبيقية، في أفق استشراف مستقبل نتمنى أن يكون زاهرا بفضل من الله.

يحرص الدكتور بنصر العلوي في كتابه على إقناع القارئ أن علوم الكون ما انفصلت يوما عن علوم الدين في هذا البلد الكريم، ولقد كانت القرويين بحق مجالا خصبا ورحبا لهذا الجمع المبارك بين العلم المسطور والعلم المنشور، وأملنا - مع الأستاذ - أن تضطلع القرويين من جديد برسالة نشر العلوم التطبيقية وتعميم نفعها بين الناس، من أجل التعمق في فهم دينهم وضمان عيش كريم في دنياهم...

والحاصل أن عطاءات علماء الحضارة الإسلامية بمختلف تخصصاتها - خصوصا منها الطب والرياضيات - ما تزال في حاجة إلى تنقيب وكشف رموز، وإلى استقراء واستقصاء، وإلى دراية وتمحيص، وإلى تحقيق وتحليل. ويقترح أستاذنا العلوي - تبعا لذلك - تأسيس خلايا بحث متعددة الاختصاص يعهد إليها دراسة الآثار العلمية العربية دراسة نسقية، وإن من شأن هذا الإنجاز العلمي/ العملي أن يحقق عدة أمور: أهمها الكشف عن التراث المغربي في مختلف العلوم؛ وإغناء البحث العلمي في التراث الطبي والصيدلي والرياضي العربي والإسلامي؛ وتطوير منهجية البحث فيما قام به ثلة من العلماء الدارسين والمحققين؛ ولمُّ شتات الإشارات العلمية المتفرقة في كتب القدماء والمحدثين، وغيرها من المقترحات العلمية والمنهجية التي وردت في آخر هذا الكتاب..

لقد تمنى أستاذنا بنصر العلوي - حفظه الله - أن تكون دراساته قد حققت مبتغاها في تلاحم الماضي بالحاضر بالمستقبل، مادامت المعارف ملكا إنسانيا يحمل الكثير من التواصل والانسجام والتكامل؛ وأنا أقول من موقع الباحث المختص في العلوم الطبيعية لأستاذنا الفاضل لقد أعطيت ووفيت.

والحال أنني حرصت في هذه التصدير التي شرفني بها الدكتور بنصر العلوي، أن أثير الانتباه إلى ثراء أعمال هذا الفاضل ومقاصده

النبيلة، في حفظ تراث الأمة العلمي وتوظيفه المعاصر في خدمة العلم والحضارة والمجتمع..

جازى الله أستاذنا الفاضل عبد الله بنصر العلوي على مجهوداته العلمية الكبيرة، وعلى غيرته على الحضارة العلمية العربية الإسلامية خصوصا حضارة المغرب، وهي لا شك غيرة مرفقة بالنقد والتحقيق والتحليل، أملا في استعادة التألق العربي الإسلامي في مجال العلوم والحضارة، في علاقة جدلية مع استعادة الوعي بضرورة ربط الماضي بالحاضر لاستشراف المستقبل.

والله الموفق للخير والمعين عليه.

الرباط في 11 نونبر 2017

تقديـم

يسعدني أن أقدم للقارئ الكريم هذه المجموعة من الدراسات التي كتبت في تواريخ متقاربة (1997-2000) استدعتها ظروف البحث في الكشف عن المكونات الفاعلة في الشخصية المغربية العالِمة. ولا أدعي أنني بلغت فيها مقاصد الباحث المتخصص، وإنما هي اهتمام بمجالات معرفية حرصتُ فيها على التعريف بإسهام الحضارة العربية والإسلامية بالمغرب العربي في زمن بلغت فيه مدارج الرقي والازدهار. فكان الخوض في غمارها بالقدر الذي استوعبتُه في تجربة فتحت لي مغالق موضوع طالما كنت متحفِّزاً على مساءلته في سياق تراثي مجيد وتطلع إلى معاودة التفكير في مظانه المستشرفة لواقع نعيد فيه بناء الذات، ولمستقبل نتطلع فيه إلى الإسهام بدور جديد في عالم يقرُّ بما للحضارة العربية والإسلامية من إمكانيات التجدد والإحياء. وقد نما لدي هذا الهاجس عندما اشتغلت بتحقيق أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية لأبي الحسن علي بن إبراهيم الأندلسي المراكشي ودراستها. وقد كنت ممتنّاً بإقدام المجمع الثقافي بأبوظبي على نشرها (1999) مما حفزني على إعادة النظر في مداخلاتي العلمية في عدد من المؤسسات العربية المهتمة بتاريخ العلوم العربية والإسلامية، فأعددت بعضها للنشر متوخيا أن يجد القارئ فيها مبعث تقديره لتراث الأجداد، وأن يعي بمدى حضوره في الواقع العلمي المعاصر، ليس باعتباره تاريخا مجيدا مضى فحسب، ولكن باعتباره واقعا حيا شديد الموائمة مع الكثير من معطيات علوم الطب والصيدلة كما رامها المحدثون، وكما يطورها المعاصرون، إذ الحضارات لا تموت، ولكنها حية باستمرار في البحث العلمي الجاد الذي يقرُّ بفعالياتها.

أملي أن تكون هذه الدراسات إضاءات قد حققت مبتغاها في تلاحم الماضي بالحاضر بالمستقبل، مادامت المعارف ملكا إنسانيا يحمل الكثير من التواصل والانسجام والتكامل، مما نشده العرب والمغاربة

عبر العصور تشبثا بهوية ناضلت من أجل عوربة المعرفة وإسلاميتها. فعسى أن نجدد مساءلة التراث العلمي بما لنا من صبر وتحدٍ.

والله الموفق لهذا المسعى الحميد.

فاس المحروسة في يوم الأحد السابع عشر من شهر محرم الحرام 1423 الموافق لمتم شهر مارس2002

الدكتور عبد الله بنصر العلوي

إسهام علماء القيروان في العلوم الطبية *
ابن الجزار نموذجا

* قدمنا هذا البحث في ندوة "القيروان، الخصوصية والنمط لاستشراف
المستقبل" القيروان 21، 22، 23 نوفمبر 1997

إن القيروان وإسهاماتها في شتى الفنون والعلوم والمعارف - بالنسبة إلينا نحن مغاربة الأقصى - تشكل مصدرا علميا هاما وفدت منه العلوم الإسلامية، وتطلعنا منه إلى الحجاز مهد الرسالة المحمدية، لذا حفلت كتب الرحلات المغربية خاصة بالحديث عن واقع القيروان الفكري والثقافي. ومن ثم كانت القيروان في أدبيات المغاربة حنينا إلى الألفة والأنس، وشوقا إلى العلم والمعرفة. وما حديثنا إلا دعم لما رامه الأجداد واستشراف لما يرومه الأحفاد، حرصا على التواصل وعلى التفاعل، لنبني أرضية صلبة للمعرفة العربية في ضوء نبوغها وعطائها، وفي إطار إسهامها الحضاري في تقدم الإنسانية آدابا وعلوما.

أولا - دواعي الاهتمام بالموضوع:

إن الموضوع الذي سأتطرق إليه يتعلق بإسهام علماء القيروان في العلوم الطبية.

وقد اخترت هذا الموضوع لعدة أسباب:

1- اهتمامي بالإسهام العلمي في الغرب الإسلامي من خلال تحقيقي ودراستي لأرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية لأبي الحسن علي بن إبراهيم المراكشي الأندلسي المتوفى خلال عام (1069 هـ/ 1655م)[1] والتي أسهمنا بها في الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب التي نظمها معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب والمقامة بإمارة رأس الخيمة خلال دجنبر 1996.

2- دراستي للعلوم التطبيقية بجامعة القرويين بين الماضي المجيد والمستقبل المأمول التي أعددناها برسم الندوة العلمية التي نظمتها جامعة القرويين بالتعاون مع منظمة الاسيسكو حول موضوع: "جامعة القرويين في أفق القرن الواحد والعشرين"[2].

[1] - صدرت فيما بعد ضمن السلسلة الأندلسية (3) عن المجمع الثقافي بأبوظبي 1999.

[2] -صدرت ضمن العدد الخاص بالندوة من مجلة جامعة القرويين، العدد الحادي عشر 1419هـ/1998م ص ص 295-310

وما ندوتا القيروان وفاس إلا مناسبتان ما أحوجنا اليوم إلى أن نستقرئ منهما في العالم العربي والإسلامي معاودة تراثنا، إذ في حضارته ومجده أقوى دليل على ماض مجيد يدعونا إلى أن نستحضر مقوماته لنقتدي بها في حاضرنا ومستقبلنا، فلا مستقبل بدون ماض بالنسبة للدول ذات الحضارة العريقة.

3 - اعتزازي بالمعرفة العلمية التي أسهمت بها القيروان في حضورها في التراث العلمي الإنساني من خلال تأثيرها في الأندلس والمشرق وفي أوربا قاطبة بفضل حلقات الدرس العلمي ومجالس العلماء التي ضجت بها القيروان.

4 - ومن توجهي إلى دراسة هذه الجوانب المعرفية ما لمسته عند أجدادنا العلماء من حضور معرفي واسع الإدراك والوعي، ومن الدرس والتحصيل ومن التأليف والتصنيف. وهذا ما جعل شخصية العالِم الإسلامي شخصية متميزة وفريدة بما لها من قدرة على المشاركة العلمية، إذ المعرفة الشاملة للعلوم الإلهية والطبيعية والرياضية تشكل جوهر العلوم الإسلامية. وفي هذا كان العطاء المميز للعالِم الإسلامي الذي جمع بين كل مجالات المعرفة. وقد حفل التاريخ الإسلامي بعلماء أفذاذ كانوا مثالا لتمثل بنيات المعرفة ومقاصدها.

وفي ظل هذا الحرص على استجلاء الشخصية العملية من جوانبها النظرية والتطبيقية تطلعتُ إلى إبراز إسهام القيروان في العلوم الطبية. ومعذرة إن قلت في البداية أني لا أحمل ثمرا إلى هاجر، كما أني لا أفتي ومالك في المدينة، فما عساني أن أضيف إلى الموضوع بعد الجهود الجبارة التي بذلها ثلة من العلماء التونسيين وأخص منهم بالذكر: حسن حسني عبد الوهاب وإبراهيم ابن مراد وأحمد بن ميلاد ومحمد سويسي ومحمد الحبيب الهيله وبويحيى الشاذلي وجمعه شيخه والراضي الجازي وكذا عبد الرحمن التليلي، وغيرهم من المحققين للتراث التونسي والدارسين لعلومه. طبعا إن إفادتي منهم فتحت بصيرتي إلى الموضوع فأثمر اطلاعي على كتاباتهم عن الإسهام

العلمي للقيروان فقرَّ عزمي على التذكير بالماضي المجيد والسعي إلى إحيائه بكل ما يقوي العزيمة على التواصل والإشعاع، وفي ذلك مقاربة تهدف إلى ما يأتي:

أ ـ التذكير ببعض أعلام العلماء الذين اشتغلوا بالعلوم الطبية.

ب ـ التعرف إلى بعض المصادر التي درسها علماء القيروان.

ج ـ إسهام علماء القيروان في التأليف العلمي وما حققوه من خصوبة المعرفة ومن معطيات البحث.

د ـ تحديد بعض المعالم النيرة والهامة في إنجاز علماء القيروان في مجال الطب.

ثانيا ـ إشكالات الموضوع:

ولتحليل هذه المقاربة تعترض الباحثين فيها جملة من الإشكالات:

1 - إن الإشارات إلى العلوم الطبية متفرقة في عدة مصادر من أبرزها كتب التراجم خاصة مما يحتاج إلى تكشيفها بقصد جمع المادة وتمحيصها.

2 - غياب فهارس العلماء المشتغلين بهذه العلوم مما لو توفر لأعطى صورا شاهدة على حضور هذه العلوم في ممارستها وكيفية أدائها ووسائل تقديمها وتحديد مصادرها وأسماء شيوخها وطرق أسانيدها.

3 - ندرة الإجازات العلمية التي من شأنها أن تبسط العلم وقيمته، وإن تعرف بصاحب الإجازة وبإذن شيوخه في مزاولة العلم، وكذا بالتزامه بالشروط الخلقية والعلمية سواء في التدريس أو في ممارسة التطبيق.

4 - وفي وجود مدرسة طبية بالقيروان يُفرض معه التساؤل عن مدى وجود مدارس أخرى في سائر العلوم.

5 - ما مدى التمايز العلمي للقيروان في علاقتها العلمية مع المراكز الإفريقية والمشرقية والأوربية.

6 - وإذا كان التراث العلمي العربي في القيروان زاخرا بالعطاء، فإن في نشره وتحقيقه سبيل إلى تدعيم مستقبلنا الحضاري. وفي دراسته الأمل الكبير في تواصل علمي يتيح التطلع إلى نشر المزيد من النصوص لتستكمل المعرفة صيغها وحلقاتها، فما أخصب ما نجني من معطيات لو كثفت الجهود لتحقيق هذا التراث ونشره وفق خطة مدروسة ومحكمة تشرف عليها خلية عمل مؤهلة علميا لإنجاز ذلك.

7 - إن المعرفة المصطلحية تثير جملة وافرة من القضايا والإشكالات، باعتبارها جزءا هاما من تاريخ المعرفة العلمية. وإن إسهام العرب في ذلك كبير وكبير. فهل استوعبنا في معرفتنا العلمية المعاصرة أبعاد المصطلح العلمي في تراثنا؟ إن البحث في هذا المجال يدعم مقاصد البحث العلمي ويخلق له سيرورة فكرية في نتائجها - دون شك - خير كثير.

8 - اهتمام كثير من الباحثين مشارقة ومستشرقين وأجانب بتاريخ العلوم عند العرب في الطب عامة والرياضيات خاصة، غير أنهم لا يتجاوزن تاريخ العلوم بالمشرق والأندلس إلا قليلا.[1] ومن ثم كانت إطلالتهم على أقطار المغرب العربي سريعة إن لم تكن نسيا منسيا على حد تعبير إبراهيم بن مراد[2].

وبالرغم من هذه الإشكالات وإسهام العلماء والباحثين في مقاربة حلولها، فإنه من الصعب علينا أن نقارب كل مجالات هذه العلوم التطبيقية لأمرين أساسيين :

1-إن مثل العرض محدود مجاله

[1]- راجع في الموضوع: العلوم عند العرب، قدري حافظ طوقان، الألف كتاب، مصر.

[2]- بحوث في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1991، ص:33.

2-أن طاقة استيعاب هذه العلوم تفرض المتخصص المدقق،

وفي عقد ندوة متخصصة في العلوم وإقبال المتخصصين على التراث العلمي العربي تصبح مشروعية هذا الموضوع لدى الأديب المهتم بتاريخ العلوم لها إيجابياتها ما دامت حريصة على إبراز الدلالات العميقة والفاعلة في هذه العلوم. وحسبنا من هذه المقاربة أن نشير إلى إسهام القيروان في مجال الطب.

ثالثا- إسهام علماء القيروان في الحركة العلمية في الطب خاصة:

لقد حظي الطب بقسط وافر في الحركة العلمية التي شهدتها القيروان باعتبار أن للطب نوعا من القداسة جعلت منه طرفا هاما من العلوم الإسلامية مما أتاح له انتشارا واسعا في أرجاء العالم الإسلامي، فكثرت فيه المدارس والمؤلفات وشاعت فيه التجارب والخبرات حتى أضحت المعرفة الطبية لدى سائر العلماء ضرورية ما دام علم الأبدان مقدم على علم الأديان[1].

وإسهام القيروان في الطب إسهام وفير حقق للثقافة العربية الإفريقية ممارسات علمية وعملية ضمنت حضورا مزدهرا منذ القرن الأول لانتشار الإسلام[2]. وفي وجود أعلام كبار الأطباء بالقيروان سبيل إلى حركة علمية أسهمت في حضارتها.

ومن أعلام الأطباء نجد إسحاق بن عمران المتوفى عام 279 هـ الذي "يعتبر بحق أول طبيب إفريقي يستحق هذا اللقب بكل ما في معناه من علم واسع وحذق بالصناعة العلمية وخبرة تامة بأصول الأوائل"[3].

---

[1]- تاريخ الطب في الحضارة العربية، فرج محمد الهوني، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ط 1، 1986، ص:8

[1]- مدرسة القيروان الطبية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، أحمد بن ميلاد.
L'école Médicale de Kairouan aux X^{eme} et XI ^{eme} Siècle , paris 1933.

[3]- ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية، حسن حسني عبد الوهاب، مكتبة المنار. تونس 1966.

وإسحاق هذا يمثل المدرسة البغدادية التي شاعت أثارها في مصر والقيروان. فقد ورد على إفريقية من مصر التي انتقل إليها من بغداد، ووجد في دولة الأغالبة الدعم والأسباب لازدهار علوم الطب والفلسفة والطبيعة مما جعله يقوم بدور كبير في تطوير العلوم الطبية بإفريقية من خلال مؤلفاته العديدة. وقد تخرج على يده عديد من الأطباء، أهمهم ابنه علي وزياد بن خلفون وأبو بكر بن محمد بن الجزار (عم أبي جعفر أحمد بن الجزار) وإسحاق بن سليمان[1].

ومن أطباء القيروان إسحاق بن سليمان (ت 341 هـ) الذي يمثل المدرسة الطبية المصرية، استقدمه آخر الأمراء الأغالبة من مصر، فأفاد من الحركة العلمية التي وجدها في القيروان، وكان له فيها تلاميذ أخذوا عنه الطب والفلسفة ومن أشهرهم أبو جعفر أحمد بن الجزار[2].

ومن الأطباء القيروانيين أصالةً الطبيب أبو جعفر أحمد بن الجزار (ت369) الذي اعتبِر " الدرة الفريدة من القلادة وأصح المفاخر الدائمة للعلوم للبلاد التونسية بل للعالم العربي بأسره "[3].

رابعا- إسهامات ابن الجزار في ضروب العلوم والمعارف:

يمثل أحمد بن الجزار المدرسة القيروانية بفضل إسهاماته الجلى في ضروب العلوم والمعارف وخصوصا في الطب والصيدلة والفلسفة والتاريخ والطبيعة والأدب. إنه نموذج حي للعالم الموسوعي المشارك الذي جمع بين العلوم الأدبية والطبيعية والرياضية. وكان عطاؤه فيها عطاء متميزا يعكس شخصية العالم الإسلامي الذي جمع بين مجالات المعرفة والعلم، فكان بفضل هذه المشاركة حاذقا وماهرا في العلوم التي

[1]- بحوث في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب، إبراهيم ين مراد، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1991. ص52

[2] - ن.م.ص:66

[3] - ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية، ص: 306/1

ألف فيها والتي مارسها. وتبلغ مؤلفاته43 مصنفا والمعروف منها 11 مصنفا طبع وحقق منها 6 أو 7 مصنفات[1]، وألفت النظر إلى بعضها:

- سياسة الصبيان وتدبيرهم: حققه محمد الحبيب الهيلة[2].

- كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها: حققه سلمان قطاية[3].

- زاد المسافر وقوت الحاضر، صدر منه الجزء الأول (المقالات الثلاث الأول من أصل سبع) بتحقيق محمد سويسي والراضي الجازي،[4] وحقق جمعه شيخه المقالة السادسة[5].

- كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة من تحقيق إبراهيم بن مراد وأعاد تحقيقه إدوارد القش[6].

- طب الفقراء والمساكين، حققه سلمان قطاية[7].

- الفروق بين الاشتباهات في العلل، حققه سلمان قطاية[8] ونسبه خطأ إلى أبي بكر الرازي. وأعاد تحقيقه رمزية محمد الأطرقجي[9] وحقق نسبته إلى ابن الجزار[10].

- كتاب في فنون الطيب والعطر، حققه الراضي الجازي وفاروق العسلي[11].

---

[1] - بحوث في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب، ص: 195

[2] - نشرته الدار التونسية للنشر 1968 وأعادت نشره دار الغرب الإسلامي ببيروت 1984.

[3] - نشرته دار الرشيد ببغداد 1980.

[4] - نشرته الدار العربية للكتاب بتونس 1986.

[5] - رقنت ضمن أعمال الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم، رأس الخيمة دجنبر 1996.

[6] - نشرته في بيروت شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2004

[7] - صدر بباريس د.ت. وصدر بعنوان مجربات العطارين المعروف بطب الفقراء والمساكين، دار المحجة البيضاء، القاهرة، 2002.

[8] - حلب 1978

[9] - بغداد 1984.

[10] - م.س.ص:196

[11] - منشورات بيت الحكمة، تونس، 2007.

- كتاب في طب المشايخ وحفظ صحتهم، تحقيق الراضي الجازي وفاروق العسلي[1]

إن مؤلفات ابن الجزار متنوعة في موضوعاتها وثرية في إفادتها، لذا يلزم تحقيق الباقي منها والبحث عن المفقود منها[2]، وتتبع المصادر لجمع آرائه وأقواله.

ولا يسعنا المجال هنا لنتحدث عن ابن الجزار الأديب، وابن الجزار المؤرخ، وابن الجزار الفيلسوف... وحسبنا من هذه المقاربة أن نشير إلى ابن الجزار الطبيب والصيدلي وما حققه تراثه من إشعاع علمي ما يزال ناصعا في جبين الطب الحديث بعطائه المثمر الناضج. وهذه بعض المعالم العامة التي تشد الباحث في الوقوف على تجلياتها العلمية عند ابن الجزار:

1 - عندما نروم دراسة تراث ابن الجزار العلمي نجده يخلص إلى تكوين مدرسة علمية من دعائم منهجها:

أ - العمل والتطبيق، فلم يكن الطب عنده فلسفة للتأمل والبحث في كليات نظرية، بل كان الطب عنده ينحو في اتجاه العمل والتطبيق. ومن ثم كان حرصه على الجمع بين الطب والصيدلة حيث كان حريصا على تحضير الأدوية بنفسه.

ب - التجريب، وهي ميزة طبعت الطب العربي بكثير من مقومات البحث العلمي، ومن أبرزها الملاحظة العلمية السريرية وتجريب الأدوية والتشريح. ويحتل ابن الجزار مكانة مرموقة في تجريب الأدوية إذ لم يكن يقنع بما يجده في المصادر الطبية من خصائص الدواء العلاجية، بل كان يجرب ويختبر. وكثيرا ما كان يردد في كتبه " جرَّبناه وحمدناه " و"قد اختبرناه وحمدناه"[3].

---

[1] - المجمع التونسي، بيت الحكمة 2009.

[2] - ن.م.ص: 197

[3]- بحوث في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب، ص: 19

2- ولم تكن لمدونة القيروان الطبية أن تنضج ثمراتها العلمية إلا بفضل ثقافة ابن الجزار التي استوعبت ثقافة عصرها في بغداد ومصر. فلم تقف عند المصادر العربية والإسلامية، بل استوعبت المصادر الأعجمية التي تنتمي إلى الثقافة اليونانية. ولذلك كانت شخصية ابن الجزار على جانب كبير من الأهمية تتجاوز حدود الاستيعاب إلى التحليل والنقد. ولم يكن استشهاده بالأصول إلا بالقدر الذي يؤكد نظره، وبالقدر الذي يقتنع بخبرته، وبالقدر الذي يولِّد لديه اهتماما وتساؤلا.

وكانت ثقافة ابن الجزار العلمية - في سياق الثقافة العربية والإسلامية بالمغرب كما يقول إبراهيم بن مراد - " على اتصال وثيق في مجال الطب والصيدلة بالثقافات الأعجمية شأنها في ذلك مثل الثقافة العربية في المشرق. وهذه الظاهرة تبرز ما كان يميز ذلك العصر من وحدة ثقافية بين العالم العربي والإسلامي"[1].

3 - ونظرا للقيمة العلمية لتلك الدعائم المنهجية وهذه المصادر العلمية كان ابن الجزار بدوره مصدرا لكثير من المعارف الطبية سواء في الأندلس أو في المشرق أو في أروبا.

ففي الأندلس وبفضل تلميذه أبي حفص عمر بن بريق الذي قدم من الأندلس ولازم شيخه ابن الجزار ثم نقل كتابه "زاد المسافر وقوت الحاضر" إلى الأندلس[2].

وقد شاعت آثار هذا الكتاب حتى عدَّ مصدرا هاما لمؤلِّفَيْن أندلسيين شهيرين: أحمد الغافقي في كتابه" الأدوية المفردة " وابن البيطار في كتابه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية".

أما في المشرق فإن كثيرا من أعلام الطب قد نقلوا من ابن الجزار عدة نقول منسوبة وغير منسوبة. يذكر من بينهم ابن سينا في كتابه "القانون" وأبو الريحان البيروني في "كتاب الصيدنة"[3].

---

[1]- بحوث في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب، ص: 225

[2] - ن.م.ص: 186

[3]- ن. م.ص:33

4 - وإذا كانت الثقافة الإفريقية قد قامت بإثراء الثقافة الأوربية في القرون الوسطى، فإن المدرسة الطبية بالقيروان قد أشعت بنورها على العالم من القرن العاشر إلى القرن السادس عشر، بل بعده بكثير عن طريق الأندلس المشار إليها آنفا، وعن طريق صقلية بفضل ترجمة قسنطين الإفريقي لكتب ابن الجزار إلى اللغة اللاتينية[1]. وهذا ما أتاح لأوربا حركة دؤوبة في علم الطب. بالإضافة إلى ما لقيه كتاب ابن الجزار زاد المسافر - كما يرى لوكليرك[2] - من اهتمام كبير بفضل ترجماته إلى العبرية واليونانية واللاتينية التي أنجزت بعد وفاة ابن الجزار بقليل[3]. وقد حقق هذا الكتاب تداولا على نطاق واسع في أروبا سواء في التدريس أو في البحث عن سبل العلاج. وكان هذا التداول -أحيانا- مجالا لسوء فهم أو قصور في الإدراك مما جعله يتعرض للتبديل والتغيير، حتى كانت الفوارق - أحيانا- متباينة بين الأصل والترجمة، كما كانت هناك ظاهرة السطو على مؤلفات ابن الجزار وانتحالها[4].

5 - إن معظم آراء ابن الجزار - باعتباره رائد مدرسة القيروان الطبية - ما تزال صالحة إلى اليوم - تتسم بالجرأة والدقة في مختلف المجالات الطبية:

فهو من الأوائل الذين أشاروا إلى التطبيب بالموسيقى وألح عليها بالنسبة للأطفال خاصة، وأستحضر هنا قولته التي أعجب بها المرحوم حسن حسني عبد الوهاب والتي ابتهج بها أيما ابتهاج:

---

[1]- من تاريخ الطب العربي بالمغرب، الأمراض التناسلية من المقالة السادسة لابن الجزار. تحقيق وتقديم جمعه شيخه (مرقون) ص: 2.

[2] -L'histoire de la médecine arabe 2V, réédition Ministère des Habous et des affaires islamiques, Rabat, 1980

وانظر الطب والأطباء بالمغرب، عبد العزيز بنعبد الله، المطبعة الاقتصادية. د.ت.ص: 11

[3]- بحوث في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب، ص: 203

[4]- ن.م.ص: 204

"وقد صح عنده أن الموسيقى والرياضة ملائمان ومربيان للطبيعة والذي يمكنه استعمال هاتين الصناعتين استعمالا جيدا يورث بدنه أدبا ونفسه حسنا وسلامة"[1].

وابن الجزار يعدُّ أول من استعمل التخدير الموضعي في علاج الأسنان.

وما تزال تجاربه الطبية في سبل التقطير والتصعيد عصرية.

وأما حديثه عن تكوُّن الحصى في المثانة يثير عجب المعاصرين.

كما أن عناية ابن الجزار ببعض الأمراض المعاصرة الشائعة اليوم كالزكام الذي شغل باله ما يزال مطروحا بحدة على بساط البحث.

ولعل اهتمامه بمشكل نفقات العلاج جعله عالما اجتماعيا ومصلحا، فكان كتابه "طب الفقراء والمساكين" مراعيا لأحوال الطبقات الاجتماعية الضعيفة بما أتاحه لها من علاج بأقل كلفة وأيسر مؤونة.[2].

6 - وإذا كان ابن الجزار قد ألف في الأدوية المفردة التي اعتمدت على العلاج الطبيعي بالأعشاب والنبات، فإن في ذلك حرصا على الأمن الصحي الذي تنشده المؤسسات الصحية اليوم. وما الدعوة إلى العلاج الطبيعي اليوم إلا تقدير لما رامه القدماء من أساليب العلاج والتشبث بإمكانات الطبيعة التي لا حد لعطاءاتها. وهذا يشكل منهجا علميا على جانب من الأهمية في حياتنا المعاصرة.

7- وإذا كان لنا أن نقف بإيجاز على كتاب زاد المسافر لابن الجزار فلأنه يعدُّ - كما يقول عنه بعض الباحثين-: "موسوعة" طبية مختصرة شاملة، كتبت بأسلوب شيق سهل، واحتوت على كل ما يحتاجه

---

[1] - انظر: مساهمة المغرب العربي من ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، عبد الحميد حاجيات، راجع:
- دراسات تاريخية، مجلة علمية فصلية تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب، العدد السابع يناير 1982، ص ص 34 – 73.

[2] - من تاريخ الطب العربي بالمغرب، الأمراض التناسلية من المقالة السادسة لابن الجزار، ص:2

الطبيب وطالب الطب، فضلا عمن ليس بطبيب، مسافرا كان أو مقيما. وهؤلاء كلهم يجدون - في هذا الكتاب الجامع بيسر وسهولة وبلغة مبسطة - معلومات مختصرة ولكنها كافية لتذكيرهم سريعا بأعراض الأمراض التي يودون الاطلاع عليها، وعلى أسبابها وعلاماتها وتشخيصها وتفريقها عما يشابهها من الأمراض. كما تُطلِعهم على طرائق معالجتها والأدوية النافعة فيها. فهي والحالة هذه، تشبه الكتب الطبية الحديثة المختصرة التي يطلق عليها مسعفات الذاكرة "[1].

8 - وإذا كانت الندوة العلمية لألفية ابن الجزار المنعقدة خلال أبريل 1984 قد قدمت أبحاثا ودراسات فإن عطاء ابن الجزار ما يزال يحتاج إلى تنقيب وتكشيف، وإلى استقراء واستقصاء، وإلى دراية وتمحيص، وإلى تحقيق وتحليل. وإذا كان لي أن أقترح تأسيس الجمعية العربية لتاريخ العلوم باسم ملتقى ابن الجزار، يُعهد إليها دراسة آثاره وآثار العلماء الأفارقة الذين نبغوا في القيروان وفي كل البلاد الإسلامية، فإن في ذلك إنجازا علميا يحقق عدة أمور:

أ - الكشف عن التراث المغربي في مختلف العلوم، هذا التراث الذي تناساه أو قصَّر فيه مؤرخو العلوم.

ب - إغناء البحث العلمي في التراث الطبي والصيدلي والرياضي العربي والإسلامي.

ج - تطوير منهجية البحث فيما قام به ثلة من العلماء الدارسين والمحققين.

د - لـمُّ شتات الإشارات العلمية المتفرقة في كتب القدماء والمحدثين.

[1]- أمراض الجلد وتدبيرها عند ابن الجزار القيرواني. عبد الكريم شحادة، الندوة العلمية لألفية ابن الجزار، أبحاث ودراسات، تونس 1987، ص:65

هـ - البحث والتنقيب عن التراث العلمي الدفين، و كذا عن المنجزات العلمية التي نمت في أحضان مدرسة القيروان الطبية، وكذا في المجالات العلمية الأخرى كالرياضيات والفلك والهندسة.

ز - جمع المؤلفات العلمية المخطوطة لابن الجزار ولغيره من علماء المغرب الكبير وتنظيم أخبارها والعناية بدرسها وتحقيقها ونشرها.

وبتأسيس هذا الملتقى ستدعم "المؤسسات العلمية" بخلية عمل لا شك أنها ستحقق منجزات هادفة وإنسانية تخص التراث العلمي العربي والإسلامي الذي غمره الماضي بخبرته وتجربته، والذي يسعى الحاضر إلى حفظه وتطويره حتى لا يندثر، مما يجب - كما يقول أحد الباحثين-: "درسه والإخلاص في تقييمه لأنه صورة من الماضي وذخر للأجداد وبعض ما خلفوه للأجيال، وهو ما بقي لنا لنحكم به ونستنتج منه ونبني عليه. ومنه نستجلي فكرة واضحة تكشف عن غنى حضارة سلفت، وقدر أهلها العلم والعلماء، ومما لا شك فيه أن التقييم والبحث والجدية والإيجابية في هذا التراث لابد وأن تدرَّ علينا ربحا علميا روحيا كبيرا وتعطينا حصادا وفيرا، فعلينا ألا نضيع الوقت وألا نهمل الواجب، بل نهب لإحياء تراث عريق لحضارة أذهلت عقول المنصفين وحيرت بروعتها أفكار المتقدمين"[1].

[1] - مصاعب نقل وحفظ التراث العلمي العربي، سامي خلف حمارنة، مجلة أوراق، ع: 3، س: 1980 ص:33

المصادر والمراجع

- أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية لعلي بن إبراهيم الأندلسي المراكشي تحقيق ودراسة عبد الله بنصر العلوي، المجمع الثقافي، أبوظبي، 1999
- أمراض الجلد وتدبيرها عند ابن الجزار القيرواني. عبد الكريم شحادة، الندوة العلمية لألفية ابن الجزار، أبحاث ودراسات، تونس 1987
- بحوث في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1991.
- تاريخ الطب في الحضارة العربية، فرج محمد الهوني، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ط 1، 1986.
- سياسة الصبيان وتدبيرهم للطبيب ابن الجزار، فرحات الدشراوي، حوليات الجامعة التونسية، العدد الثالث، السنة 1966 (ص ص 29 - 33).
- الطب والأطباء بالمغرب، عبد العزيز بنعبد الله. المطبعة الاقتصادية. د. ت.
- العلوم عند العرب، قدري حافظ طوقان، الألف كتاب، مصر
- مدرسة القيروان الطبية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، أحمد بن ميلاد.

L'école Médicale de Kairouan aux X^{eme} et XI ^{eme} Siècle , paris 1933.

- ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية حسن حسني عبد الوهاب، مكتبة المنار. تونس 1966.

المقالات:

- علم النبات عند العرب من مرحلة التدوين اللغوي إلى مرحلة الملاحظة العلمية المحض، إبراهيم بن مراد، حوليات الجامعة التونسية، العدد 29، سنة 1988، (ص ص 259 –310).
- العلوم التطبيقية في جامعة القرويين بين الماضي المجيد والمستقبل المأمول، د.عبد الله بنصر العلوي، مجلة جامعة القرويين، العد الخاص بندوة "جامعة القرويين في أفق القرن الحادي والعشرين"، ع:11، ص.ص:295-310
- مساهمة المغرب العربي من ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، عبد الحميد حاجيات، دراسات تاريخية، مجلة علمية فصلية تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب، العدد السابع يناير 1982، ص ص 34 - 73
- مصاعب نقل وحفظ التراث العلمي العربي، سامي خلف حمارنة، مجلة أوراق. ع 3، س 1980
- من تاريخ الطب العربي بالمغرب، الأمراض التناسلية (المقالة السادسة) لابن الجزار. تحقيق وتقديم جمعه شيخه (مرقون).

ثقافـة الطفـل
في التـراث العلـمي العـربي*

* قدمنا هذا البحث في الندوة العالمية السابعة لتاريخ العلوم عند العرب التي نظمها معهد التراث العلمي العربي بحلب /سوريا، ومركز زايد للتراث والتاريخ بالعين /الإمارات، والمنعقدة بالعين بتاريخ: 15-18 شعبان 1421 الموافق 12-15 تشرين الثاني 2000

تقديم

للطفل في التراث العربي مكانة هامة، إذ أولاه عناية كبيرة في سائر المجالات تربوية أكانت ثقافية أم اجتماعية أم صحية ... مما خلَّف لدى المصلحين والعلماء العرب والمسلمين عناية فائقة بالأسس التي تقوم عليها عملية تثقيف الطفل.

وذلك لعدة عوامل:

1/ الشعور الإنساني بالبنوة والأمومة.

2/ اهتمام الشريعة الإسلامية بشؤون الطفل.

3/ رعاية المؤسسات الدينية بتربية الطفل.

4/ العناية بصحة الطفل: جنينا ورضيعا وصبيا ويافعا.

والجدير بالذكر أن التراث العربي الإسلامي في مجال الطب خاصة عرف الاهتمام بالطفل صحيا في أمور الغذاء والنمو والمرض حتى أصبح التخصص في هذا الباب تأليفا وممارسة يكاد يشكل معلما بارزا في تراثنا العربي والإسلامي قبل الغرب بقرون عدة، خلافا لما زعمه كل من MARCEL LELONG و NALSON من أن علم تربية الأطفال تربية صحية أو ما سمي بطب الأطفال لم يبرز كعلم مستقل عن غيره من العلوم الطبية إلا في القرن التاسع عشر الميلادي.

والواقع أن العرب سبقوا ذلك التاريخ بنحو ستة قرون، فقد كان القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد قمة في العطاء في سائر المجالات العلمية، ومنها التأليف الخاص بصحة الطفل. فقد ألف ابن الجزار المتوفى عام 369هـ/980م أول مصنف من نوعه يهتم بثقافة الطفل الصحية، وهو بعنوان: **"سياسة الصبيان وتدبيرهم"**[1]. وقد قال عنه مؤلفه:

[1] - كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، نشرت الطبعة الأولى الدار التونسية للنشر 1968، ونشرت الطبعة الثانية المنقحة دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984.

"إن معرفة سياسة الصبيان وتدبير صحتهم باب عظيم الخطر جليل القدر، ولم أر لأحد من الأوائل المتقدمين المتطببين كتابا كاملا."

أولا- نحو تخصص لطب الأطفال في التراث العربي

إن من أبرز ما اتسمت به الحضارة العربية ذلك الالتحام الكبير بين مجالات الثقافة والتربية. ويشكل ذلك - كما يرى أحد الباحثين[1] - نهجا علميا ورؤية دقيقة رغم اختلاف مشارف المعرفة وصيغها ودلالاتها تتكامل وجوهها من ثقافة إسلامية النهج عربية اللسان موحدة الأصول. ولذلك تضافرت جهود الفقهاء لتحديد مجالات إنجاز أوجه هذا التكامل لدى الإنسان المسلم. ومن ثم كانت ثقافة الطفل وكل ما يتعلق بها من شؤون مقصدا هاما في كل ما ألف في العلوم اللغوية والدينية والعلمية. ولا يقتصر الأمر هنا في المجال التعليمي على أمور الدنيا والدين، بل يتجاوز ذلك إلى التربية الصحية التي اعتبرت الأساس الأول لثقافة الطفل قبل ممارسة تثقيفه.

وهذ ما جعل الطب يحظى بقسط وافر في الحركة العلمية التي شهدتها الحضارة الإسلامية، باعتبار أن للطب نوعا من القداسة جعلت منه طرفا هاما في العلوم الإسلامية مما ما أتاح له انتشارا واسعا في أرجاء العالم، إذ كثرت فيه المدارس والمؤلفات، وشاعت فيه التجارب والخبرات حتى أضحت المعرفة الطبية لدى سائر العلماء ضرورية مادام علم الأبدان مقدَّم على علم الأديان.[2]

ومن فروع الطب التي اعتنى بها الأطباء العرب طب الأطفال الذي عرف رواجا كبيرا جسَّد في تراثنا الطبي صورا مشرقة. وقد أدت المؤلفات العربية في الموضوع دورا رياديا في التاريخ الإنساني بما

[1]- الفكر التربوي عند العرب، إبراهيم النجار والبشير الزريبي، الدار التونسية للنشر،1985، ص 30

[2]- تاريخ الطب في الحضارة العربية، فرج محمد الهوني، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ط 1986،1، ص: 8

أبرزته من معلومات ومعطيات كانت البرهان الساطع والدليل القوي على إسهامها الفعال في الدور الحضاري الذي اضطلعت به.

"إن الأطباء العرب عندما نقلوا طب الأطفال - كغيره من العلوم - عن من سبقهم لم يكونوا مجرد قنطرة عبَر عليها هذا العلم ليصل إلى عصر النهضة العلمية في أوربا - كما يدعي البعض - بل اتخذوا لأنفسهم نبراسا علميا تميز بالملاحظة الدقيقة والاستقراء والرصد والتتبع وإجراء التجارب. وقد تمخض كل ذلك عن تقويم القديم وإضافة الكثير مما جادت به عبقرياتهم وخبراتهم."[1]

وإذا كان موضوع طب الأطفال قد عرف قبل العرب عند أبقراط وجالينوس وسورانوس، فإن ذلك كان في سياق الطب النسائي.[2] أما عند العرب فقد عرف استقلالا في التأليف على نحو ما نجده لدى المؤلفين الآتية أسماؤهم:

1/ الرازي في" رسالة في أمراض الأطفال والعناية".

2/ ابن الجزار في كتابه "سياسة الصبيان وتدبيرهم".

3/ ابن سينا في كتابه "القانون" الذي يحتوي على جزء خاص بالطفل.

4/ القرطبي في "خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين".

5/البلدي في "تدبير الحبالى والأطفال والصبيان ومداواة الأمراض العارضة لهم".

6/ الطبري في كناشه "المعالجة البقراطية" حيث أفرد مقالا لطب الأطفال.

---

[1] -كتاب تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم، أحمد بن محمد بن يحيى البلدي، تحقيق محمود الحاج قاسم محمد، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980، ص:6-7

[2] - راجع: رسالة في أمراض الأطفال والعناية بهم، أبوبكر محمد بن زكريا الرازي، نقلها للأنجليزية صمويل إكس رادبل، نقلها للعربية وعلق عليها د.محمود الحاج قاسم محمد، مجلة "آفاق عربية"ع:6 شباط 1982،السنة السابعة،ص.ص:66-72

وكل هذه المؤلفات تنحو نحو التخصص في علاج أمراض الطفل والعناية بكل مستلزماته وحل مشكلاته وبسط معضلاته. والتخصص فيها لا يتعلق بالممارسة الفعلية المحدودة، نظرا لما يستوجبه الطب من الاطلاع والمعرفة لأحوال جسد الإنسان.

وإذا كان أمر الأولية يفرض نفسه وخاصة بين ابن الجزار (ت369هـ) وبين الرازي (ت 313هـ) وبين البلدي(380هـ) مما اختلف فيه الباحثون، فإن النظر العلمي يميل إلى كون ابن الجزار رائدا - وإن لم تكن له الأولية[1] - في التأليف في هذا التخصص لعدة اعتبارات، منها:

أ- اهتمام ابن الجزار بطب الشيوخ والمساكين جعله يهتم أيضا بطب الأطفال.

ب- تصريحه في ديباجة الكتاب بما نصه: "ولم أر لأحد من الأوائل المتقدمين المتطببين كتابا كاملا".

ج- استفادته من مصادر سبقته في الموضوع، يقول: "بل رأيت ما يحتاج من علمه ومعرفته في ذلك متفرقا في كتب شتى وأماكن مختلفة، رأيت أن أجمع المتفرق من ذلك في الكتب الكثيرة وألفت بعضه إلى بعض في هذا الكتاب."

ثانيا- التعريف بابن الجزار وبجهوده العلمية[2]

أسهمت مدينة رقادة بإفريقية التونسية في تاريخ الطب العربي إسهاما فعالا حقق للثقافة الطبية الإسلامية ازدهارا في التأليف والممارسة، منذ القرون الأولى لانتشار الإسلام، مثَّله أعلام كبار وطَّدوا

[1] -جاء في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، دار الفكر، بيروت 1956، ص:166/1، وفي كتاب إخبار العلماء بأخبار العلماء للقفطي، طبعة الخانجي، مصر،1312هـ، ص:172، أن بولس الأجانيطي (paul d. EGINE ألف كتابا في تدبير الأطفال وتربيتهم. راجع: - كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة. نشرت ط 1، الدار التونسية للنشر 1968. ونشرت ط 2 المنقحة دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984، ص:42

[2] - راجع الموضوع في هذا الكتاب: ص.ص: 16-19

حضارة القيروان.[1] منهم: إسحاق بن عمران (ت:279هـ) وابنه علي بن عمران وزياد بن خلفون وأبو بكر بن محمد بن الجزار وإسحاق بن سليمان[2] وأبو جعفر أحمد بن الجزار.[3]

ويعتبر ابن الجزار(ت:369هـ) نموذجا للعالم الموسوعي المشارك الذي جمع بين العلوم الإلهية والطبيعية والرياضية. وكان عطاؤه فيها عطاء متميزا يعكس شخصية العالم الإسلامي الذي جمع بين مجالات المعرفة والعلم، فكان بفضل هذه المشاركة حاذقا وماهرا في العلوم التي مارسها وألف فيها. وتبلغ مؤلفاته 43 مصنفا المعروف منها 12 مصنفا فقط طبع وحقق منها سبع مصنفات[4]، وهنا ألفت النظر إلى كتاب: "سياسة الصبيان وتدبيرهم"[5].

وهو من أهم كتبه التي تعكس شخصيته العلمية الفذة وموسوعيته العلمية، إذ تجمع بين الممارسة والتأليف. ومن ثم كانت مؤلفات ابن الجزار مصدرا لكثير من المعارف الطبية سواء في الأندلس أو في المشرق أو في أوربا مما تناقلته العديد من المصادر العربية واللاتينية.

ثالثا - كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم[6]:

---

[1] - راجع: مدرسة القيروان الطبية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، أحمد بن ميلاد،

l.ecole Medicale de Kairouan aux Xeme et XI eme Seicle. Paris. 1933

[2] - ن. م.ص:52

[3] - ن. م ص:66

[4] - بحوث في تاريخ الطب، م.س.ص: 195

[5]- من تحقيق محمد الحبيب الهيلة، نشرت ط 1 الدار التونسية للنشر 1968. ونشرت ط 2 دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984

[6] -تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، نشرت ط 1 الدار التونسية للنشر 1968. ونشرت ط 2 دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984.وتتضمن ط 2 في 174 ص، يقع نص المتن ما بين ص.ص:43-116.

ونشير هنا إلى بعض الباحثين الذين درسوا هذا الكتاب:

- محمود الحاج قاسم محمد: ابن الجزار القيرواني وكتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم. مجلة طب الأطفال، العراق ع 3، م 1972/2

نتناول في دراستنا لهذا الكتاب المجالات الآتية:

أ- مصادر التأليف

ب- منهجه

ج- تحليله في ضوء العناية بالطفل:

جسديا (حفظ صحة الطفل)

وصحيا (مداواة الأمراض)

ونفسيا (طباع الطفل وسلوكه)

د- أهمية الكتاب وشهادة العلماء فيه

أ- مصادر التأليف

تتنوع مصادر المعرفة العلمية عند ابن الجزار في كتابه "سياسة الصبيان وتدبيرهم "إلى مصادر الممارسة والتجربة، وإلى مصادر الاطلاع التي اعتمد عليها في تأليفه. ومن هذه الأخيرة اعتماده على آراء عديدة استقاها من المصادر المتداولة في عصره للعلماء الذين سبقوه. منها:

- فصول لأبقراط
- كتاب السياسة لجالينوس
- مقال بولوس في تدبير الأصحاء لجالينوس
- كتاب الصنعة الطبية لجالينوس

- حسين عمر حمادة: سياسة الحبالى والأطفال بين ابن الجزار والبلدي، مجلة العلم والإيمان، تونس، ع79/78، س 10، جوان –جويلية1982
- سناء سليمان: ابن الجزار القيرواني في كتابه سياسة الصبيان، مجلة الصيدلي التونسي، ع 8،جوان 1983
- سليم عمار، ابن الجزار وكتابه سياسة الصبيان، مجلة العلم والإيمان، تونس، ع 79/78 س 10، جوان –جويلية1982

- كتاب الأدوية المبسوطة لجالينوس

ونقل أيضا عن كتب إسحاق بن ماسويه ويحيى بن ماسويه وغيرهم.

ومثل هذه النقول والإشارات تدعِّم آراءه أو تكمِّل وجهة نظره، أو ينقدها بما مدَّه عصره من معلومات أو من تجاربه الخاصة. وهي في عمومها من مقومات المنهج العلمي في التأليف.

ب- منهجه

بفضل جهود ابن الجزار الكبيرة وعطائه المثمر الناضج كوَّن مدرسة لها أسسها ومقاصدها ومميزاتها[1]، ويمكن ذكر بعض المعالم المنهجية التي في ضوئها ألف ابن الجزار كتابه "سياسة الصبيان وتدبيرهم":

1- العمل والتطبيق. لم يكن الطب عند ابن الجزار يعتمد على القراءة والنقل أو على فلسفة التأمل والبحث في الكليات النظرية، بل كان الطب عنده ينحو في اتجاه العمل والتطبيق. ومن ثم كان حرصه على الجمع بين الطب والصيدلة سبيلا علميا تجلت آثاره في معاينة الأمراض وتحضير الأدوية المناسبة لعلاجها.

2- الملاحظة والتجريب. من أبرز المقومات التي طبعت الطب العربي بكثير من السمات العلمية الملاحظة العلمية السريرية وتجريب الأدوية والتشريح. ويحتل ابن الجزار مكانة مرموقة في تجريب الأدوية إذ لم يكن يقنع بما يجده في المصادر الطبية من خصائص الدواء العلاجية، بل كان يجرب ويختبر. وكثيرا ما كان يردد في كتبه: "جربناه وحمدناه" أو "وقد اختبرناه وحمدناه".[2]

---

[1]- وجب التنبيه إلى أن صاحبنا ابن الجزار ولو أنه جمع بين الطب والصيدلة لكنه فرق بينهما منهجيا وتطبيقيا وهذا مما يحسب له في تاريخ الطب العالمي (المراجع).

[2] -بحوث في تاريخ الطب والصيدلة ...م.س، 1982ص: 19

3- الشك والنقد. وهما سبيلان منهجيان عند ابن الجزار تحدد طبيعتهما ماهية التساؤل عما يقرأ وعما اعتاده الوسط الطبي في عصره. فالشك دعامة العلم، والنقد سبيله. وكثيرا ما كان يشك في آراء جالينوس وابن ماسويه وإسحاق بن عمران فيعيدها ليختبرها وليضيف إليها ما يقوي من فعالية وصف الداء والدواء.

4- دقة التبويب، بوَّب ابن الجزار كتابه في اثنين وعشرين بابا، حدد لها ثلاثة مجالات:

أولهما: ضم ستة أبواب تحدث فيها عن حفظ صحة الطفل وتدبيره.

والثاني من الباب السابع إلى الباب الواحد والعشرين بسط فيها مداواة أعضاء جسم الطفل.

أما المجال الثالث فقد خصه بالباب الثاني والعشرين تناول فيه طباع الأطفال وتربيتهم.

ومثل هذا التبويب في عموم منهج ابن الجزار - كما يرى أحد الباحثين - من شأنه "أن يكون واضحا تمام الوضوح فيما يضعه أمام القارئ من تآليف. فتراه يجهد فكره، في تقسيم منطقي وتبويب محكم وترتيب دقيق." [1]

5- مقصدية التعليم، وبفضل دقة التبويب كان القصد واضحا من الغاية التعليمية، فجمع الآراء المتفرقة، وتحليلها ومناقشتها وتجريبها، وإبداء الملاحظات عليها، وتقديمها في فقرات محددة وموجزة، يحقق أبسط سبل الفهم وأيسر طرق الدرس. ويبدو أن ابن الجزار - كما يرى جمعة شيخة - ينزع منزعا تعليميا وعمليا "وكأنه يريد أن يكون الإنسان - بعد قراءة مؤلفاته - طبيب نفسه وقاية وعلاجا بقطع النظر

[1] -المنهج العلمي عند ابن الجزار، جمعه شيخه، الندوة العلمية لألفية ابن الجزار، م.س.ص:170

عن الطبقة التي ينتمي إليها، إذ غرضه منها هو أن يحقق المنفعة للعامة والخاصة"[1].

ج- تحليله:

وإذا كنا نقدِّم هذا الكتاب فلأننا نحرص على إذكاء نبراس التراث العلمي العربي الذي أسهم بحظ وافر على تقدم المعارف الطبية بالقدر الذي أتاح للنهضة الأروبية السبل التي أقرت بنبوغه.

وإذا كان مؤرخو الطب الحديث يعترفون أنفسهم بالدور الكبير الذي اضطلع به العرب والمسلمون في تاريخ الطب، فما أجدرنا اليوم أن نحيي هذا الإسهام الحضاري الذي من شأنه أن يدعِّم البنيات التي نسعى إلى ربطها في دورة حركية التاريخ.

وإذا لم يكن القصد من هذا البحث إبراز هذا العمق العلمي وذلك الاستشراف المعرفي مادام مجال ذلك لدى المتخصصين العارفين، فإننا سنحاول تقديم كتاب ابن الجزار: "سياسة الصبيان وتدبيرهم" تقديما نسعى من ورائه إلى أمرين اثنين:

الأول، التعريف به في ضوء العناية بشخصية الطفل في التراث العربي والإسلامي.

الثاني، تنوع محاور هذه الموضوع التي جمعت بين تمثل الماضي والتطلع إلى المستقبل، والتي ضمت مجالي المعرفة العلوم النظرية والتطبيقية.

وفي الأمرين معا يتجلى سمو المقاصد، مثلما كان ابن الجزار حريصا على مشروعية تأليفه لكتابه.

يستمد الكتاب مشروعية تأليفه من الحرص على إكمال "حدود صناعة الطب الذي هو حفظ الصحة على الأبدان الصحيحة ودفع

[1] - ن.م، ص: 177

المرض عن الأبدان السقيمة، وذلك أنا ذكرنا ما نحفظ به الصبيان على صحتهم الطبيعية وحسن العناية بهم وجودة التدبير".[1]

كما يستمد الكتاب مشروعيته من أن تربية الطفل تبتدئ قبل ولادته "إن الذي يحتاج إليه من المرأة عند طلب الولد هما أمران: أحدهما من البدن والآخر من النفس، وذلك أول صلاح الولد والأساس الذي يُبنى عليه تأديبه وتقريبه"[2].

وقبل تحليل الطابع العام لهذا الكتاب نلفت النظر إلى عنوانه "سياسة الصبيان وتدبيرهم" لأهمية مكوناته:

فمصطلح السياسة في الكتاب يعني عرض الموضوع وتحليل كافة جوانبه وطرح مشكلاته ومعالجة قضاياه بأسلوب علمي منطقي وموضوعي. ويعني ذلك هنا "ضبط الإنسان لنفسه وتدبير شؤون مرباه وتسيير أمور عشيرته"[3]

ومصطلح التدبير يعني تصريف الشؤون عامة. ومنها تحديد سبل الوقاية والعلاج المتوخاة لحفظ الصحة أمنا من الأمراض والأعراض التي تصيب الصبيان. وابن الجزار في هذا المصطلح دقيق جدا إذ لم يستعمل كلمة التربية التي غالبا ما تستعمل لمن أدرك ونما عقله وتملك حاسة التمييز.[4]

أما مصطلح الصبيان فشامل عند ابن الجزار مراحل الطفولة، أي من تاريخ الولادة إلى بلوغ أربعة عشر عاما من العمر. وهو نفس التحديد الذي أخذت به المعاجم الفرنسية[5].

ويمكن تحديد المجالات العامة التي تطرق إليها الكتاب فيما يأتي:

---

[1] - م.س.ص:45-46

[2] - ن.م.ص:47

[3] -الفكر التربوي عند العرب، م.س. ص 314 هـ (1)

[4] - سياسة الصبيان وتدبيرهم، عرض وتلخيص د. محمد بن سعد الشويعر، مجاة الفيصل، السعودية، ع 24،جمادى الآخرة 1399/مايو1979،ص69

[5]- grand dictionnaire HACHETTE ENCYCLOPEDIE P 504

- العناية بالطفل جسديا.
- العناية بالطفل صحيا.
- العناية بالطفل نفسيا.

أ- العناية بالطفل جسديا

تبدأ العناية بصحة الطفل من صحة **الحامل** لما لها من أثر كبير على مستقبل الطفل جسديا ونفسيا. ويحدد الشروط اللازمة لسلامة الحمل والوضع في البدن والنفس، فالذي من البدن صحة الجسم والطبع، ومن النفس "صحة القريحة وقوة الذهن وتهذيب الخاطر". وكل هذا يعدُّ الأساس الذي يبنى عليه صلاح الطفل.

كما يشير ابن الجزار إلى أهمية **المرضعة** وتوفر شروط ضرورية تتعلق بسنها وخَلقها وخُلقها وحسبها. كما أن **للحاضنة** دوراً هاما في تدبير شؤون الطفل.

ويحلل ابن الجزار في هذا المجال بدقة متأنية أهمية الرضاعة وتركيب اللبن وسبل إدراره وصحته. ومثل هذا الاهتمام بالرضاعة وأحوالها مماله علاقة وطيدة اليوم بدعوة المنظمات الصحية الدولية إلى الرضاعة الطبيعية وأثرها البالغ على مستقبل صحة الطفل ووقايته من العديد من الأمراض.

ويثير ابن الجزار في هذا المجال أمور العناية بالطفل التي تتعلق بغذائه ومضجعه وتنظيفه وجلوسه ومشيه وبكائه.

ب-العناية بالطفل صحيا

تعرض ابن الجزار لأمراض الأطفال التي يصابون بها عادة. فحلل ستة عشر نوعا[1] من العلل محددا سبل العلاج. بدءاً من الأعراض التي تعرض للأطفال في كل درجة من أسنانهم وأمراض جلودهم وأمعائهم وأفواههم وحدقاتهم.

ولعل أبرز الملاحظات العلمية لطب أسنان الأطفال التي أبداها ابن الجزار تتعلق بالربط بين نمو الأسنان ونوع الغذاء، وبين نمو الأسنان وفصل الطبيعة، وهو - وإن أقر بما عند أبقراط وجالينوس - فإنه بسط ذلك بالقدر الذي أعاد للمعرفة الطبية اليونانية الكثير من "العِلمية" التي حافظت على أصوله والتي فتَّحت الذهن العربي باكتساب أسباب الاطلاع والخبرة والممارسة.

ج- العناية بالطفل نفسيا

يبرز ما تبقى من الباب الثاني والعشرين الأخير من كتابه آراء ابن الجزار في التربية النفسية للطفل، وسبل التوجيه والتقويم. من ذلك أن الطفل يخضع في سلوكه وتصرفاته لعاملين أساسين هما الطبع والعادة. فالطبع هو ما كان في طبيعة تكوينه الذي خلق عليه الطفل. وأما العادة فهي مكتسبة يقتبسها الطفل من تربية أهله ومعلميه.[2] ويحلل ابن الجزار نفسية الأطفال في ميولهم إلى الحياء والألفة والصدق ممن تسهل تربيتهم، وفي ميلهم إلى الخصال الذميمة ممن يحتاجون إلى العناية بتربيتهم والحرص على سواء شخصيتهم واكتسابهم العادات الحسنة، وذلك بأساليب التقويم: الترغيب أولا، والتوبيخ ثانيا، والعقاب البدني ثالثا. وآراء ابن الجزار في تربية الطفل آراء جديرة بالدرس والتأمل، فهي لا تختلف - كما يرى أحد الباحثين - عما آمن به علماء نفس الأطفال وأقرَّ به المربون في وقتنا الحاضر.

---

[1] - استدرك عليه الأطباء بعض العلل التي لم يشر إليها. انظر: البلدي في كتابه تدبير الحبالى ...م.س. ص:14. راجع المقالة الثالثة من ن. م ص ص:223-329

[2] -سياسة الصبيان ...م.س.ص:115 وراجع الندوة العلمية لألفية ابن الجزار م.س.ص:358

ويمكن الإشارة إلى بعض النتائج العامة التي أقرها ابن الجزار في هذا المجال[1]:

أ - أعطى ابن الجزار أهمية بالغة للنواحي الفارقية العقلية منها والوجدانية والنزوعية التي يعرفها الأطفال.

ب - القول بالفطرة وبما جُبِل عليه الطفل من خير، أما الشر فتأثير من البيئة.

ج - عندما يضعف الوازع الذاتي يتقوى الرادع الخارجي.

د - تربية الطفل منذ ولادته أيسر من إعادة تربيته.

هـ - التربية التزام دائب لا يعترف بالفشل.

و - الاعتناء بالجانب السلوكي الاجتماعي أمر ضروري في تربية الطفل.[2]

وهذه المجالات الجسدية والصحية والنفسية متكاملة فيما بينها تحقق للطفل كافة الوسائل التي يقرها عصر ابن الجزار سبيلا إلى إعداد طفولة سعيدة تهيئ رجولة نافعة للأمة والدين والإنسانية.

أهمية المؤلَّف وشهادات العلماء فيه

لمؤلَّف "سياسة الصبيان وتدبيرهم" أهمية بالغة في الكتب التي تعتني بثقافة الطفل، ولو أن المصادر القديمة لم تذكره. ورغم قلة تداول مخطوطات الكتاب يبدو أن ابن سينا اطلع على كتاب ابن الجزار دون أن يشير إليه في أكثر محتوياته التي تناولها عن طب الأطفال في كتابه القانون. وفي عصرنا الحديث نجد مخطوطتي البندقية والرباط اللتين

[1] - راجع بعض الهوامش في الفكر التربوي ...م.س. ص. ص 174-176

[2] -ن.م.ص.

اعتمدهما المحقق في الطبعة الثانية للكتاب، وبعد ذيوع الكتاب اهتم به الباحثون المعاصرون.[1]

وقد قرظه كثير من العلماء والباحثين. نذكر لبعضهم هذه الشهادات، يقول محمد الحبيب الهيلة:

"إن كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم يُعتبر عيّنة تمثل وضوح الرؤية وعمق الفهم وأصالة المعرفة التي كان يمتاز بها الفكر العربي الإسلامي. والمجتمعات العربية اليوم في أشد الحاجة إلى أمثال هذه العيّنات لعلها تغرس بذرات الإيمان بالحضارة العربية في نفوس أولئك الذين يرون ماضيهم التليد بمنظار حاضرهم المتعثر".[2]

ويقول الدكتور عبد المجيد رزق الله:

"إن ابن الجزار عبقري حقا ورائد حقا في طب الأطفال، ويتجلى ذلك من خلال كتابه "سياسة الصبيان وتدبيرهم"، وهو يحتوي على معلومات نيرة ومبادئ خالدة تخص العناية بالأطفال من الناحية الجسدية والروحية معا، باعتبار أن سن الطفولة هو السن الذي يتوقف عليه رجل الغد".[3]

خاتمة

لقد تعاملت كثير من المصادر العربية القديمة مع كلمة الطفل من جوانب متعددة، منها اللغوي والتشريعي والتعليمي والتربوي والعلمي. وكان في ذلك إغناء أمدَّ العالم الحديث بمقومات "علم الطفولة "وأتاح مجالات خصبة في البحث العلمي. وهذا ما جعل سياسة الطفولة ترتقي مدارج الخبرة والتجارب مستمِدة من التراث الكثير من المعطيات التي تفتح آفاق التطور والارتقاء. وهذا من شأنه أن يدعم الجهود الرامية إلى إشاعة السعادة والهناء لحياة مرحة وفرحة تضمن التمتع بحقوق الحياة في التربية والتعليم والصحة.، مما يجعل الدور الأساسي الذي تقوم به

[1] -سياسة الصبيان ...ص:40

[2] - سياسة الصبيان ...ص: 8

[3] - الندوة العلمية الألفية م.س ص: 372

الحكومات والمؤسسات يجسِّد مسؤولية جسيمة تضطلع بوضع الأسس الكفيلة التي توفر الأمن الصحي والغذائي والمعرفي. وما هذه المؤتمرات واللقاءات إلا إحساس بما رامه الأجداد من عناية بالصبي رجل المستقبل وبما نتحمله من مسؤوليات لإعداده الإعداد اللائق بهويتنا وعقيدتنا وحضارتنا.

وهذا ما يجعل "علم الطفل" من العلوم المستقبلية التي تعتمد على المواقف النيرة لما في تراثنا من إضاءات علمية جديرة بالبحث والتقدير، ما دامت الطفولة "تعدُّ مرحلة وجود مهمة في ذاتها ولذاتها، ولم يعد الطفل فيها مجرد مراهق صغير، أو مجرد كائن في طريقه إلى مرحلة المراهقة، بل كان خبرة في الحياة لها به اتصال وثيق وعلاقة متينة. وطفل اليوم - طفل الإذاعة والتلفزيون طفل عصر الأقمار الصناعية - لديه قبول ذاتي لكثير من الخبرات، وعنده استجابة للاستمتاع بكل خطوة على درب الحياة الطويل وهو يقف على عتباته ولم تتضح له ملامح الرحلة بعد"[1]. ومن مسؤولياتنا الكشف عن ملامح هذه الرحلة بالرؤية الثاقبة والفكر السديد.

والجدير بالذكر أن دراسة تاريخ التربية العربية - من خلال الفكر التربوي الإسلامي الذي يستمد مقوماته من الكتاب والسنة ومن آراء الفقهاء والعلماء - لمن شأنه أن يحقق سبل فهم واقعنا بالقدر الذي يجعله مواكبا لمستوى الفكر التربوي المعاصر من حيث العمق والقيمة العلمية. وكم همُ الأطباء والفلاسفة والعلماء والفقهاء الذين اهتموا بهذا المجال الحيوي في تراثنا الإسلامي مما يجب علينا تقدير آرائهم وتوجيهاتهم مؤسسين علم الطفل العربي بكل إرهاصاته وتطلعاته. وهذا ما يجعلنا جديرين بعطائنا المثمر الوقاد.

[1] - في أدب الأطفال، علي الحديدي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2،1976،ص 61

المصادر والمراجع

- بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، ط 1،1991.
- تاريخ الطب في الحضارة العربية، فرج محمد الهوني، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ط 1،1987.
- الفكر التربوي عند العرب، إبراهيم النجار والبشير الزريبي، الدار التونسية للنشر،1985.
- في أدب الأطفال، علي الحديدي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2 ،1976.
- كتاب تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم، أحمد بن محمد بن يحيى البلدي، تحقيق محمود الحاج قاسم محمد، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980.
- كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، نشرت الطبعة الأولى الدار التونسية للنشر 1968، ونشرت الطبعة الثانية المنقحة دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984.

المقالات:

- إسهام علماء القيروان في العلوم الطبية ابن الجزار نموذجا، عبد الله بنصر العلوي، ندوة "القيروان ...الخصوصية والنمط لاستشراف المستقبل" نوفمبر 1997.
- رسالة في أمراض الأطفال والعناية بهم، أبوبكر محمد بن زكريا الرازي، نقلها للإنجليزية صمويل إكس رادبل، نقلها للعربية وعلق عليها د. محمود الحاج قاسم محمد، مجلة "آفاق عربية"ع:6 شباط 1982، السنة السابعة.

- سياسة الصبيان وتدبيرهم، عرض وتلخيص د. محمد بن سعد الشويعر، مجلة الفيصل، السعودية، ع 24، جمادى الآخرة 1399/مايو1979.
- الندوة العالمية السادسة التاريخ العلوم عند العرب، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، انعقدت الندوة برأس الخيمة، دجنبر 1996.
- الندوة العالمية لألفية أحمد بن الجزار، أبحاث ودراسات، المطبعة الرسمية، تونس، جويلية 1987.
- l.ecole Medicale de Kairouan aux Xeme et XI eme Seicle. Paris. grand dictionnaire HACHETTE ENCYCLOPEDIE

الفواكـه مصـدراً للعلاج الطبيعـي في التراث الطبي العربي*

تقديم:

إن المعرفة الإنسانية معين لا ينضب من العطاء، وذلك بفضل التجارب والخبرات التي سجلها تراث الأجداد، ومن خلال معاودة تاريخه واستقراء نتائجه وتمحيص وسائله الإجرائية يتضح أن ما أسماه توينبي بدورة الحضارة - يقصد الحضارة الإسلامية - كشف عن ميكانيزمات حضارة تفاعل معها الإنسان في سياق البحث عن المعرفة التي أخلص لها الفكر الإنساني بما أولاه لها من تأمل وتجريب التماسا للسعادة والفضيلة [1].

ولعل الخلود إلى الطبيعة من أبرز تلك الميكانيزمات باعتبارها العامل الفاعل في خلق التوازن بين الإنسان والمكان، وبين الواقع والآمال، وبين المعرفة والتجربة، وبين الفلسفة والعلم، وبين السلوك والقيم، وبين المنطق والتأمل، وبين المنفعة واللذة.

ويفضي هذا التوازن - وهو يخلد إلى الطبيعة - إلى حقيقة هامة تعكس قيمة ضرورة التواصل بين استلهام الحاضر واستشراف المستقبل ليتم بذلك بناء الحاضر. ومن أبرز وجوه هذا التواصل ما يتعلق بالإنسان والنبات سعيا إلى "تحقيق نوع من التوازن الطبيعي من خلال معرفة عميقة ودقيقة بالنباتات من جهة، وبالحس البشري من جهة ثانية، وبالفوائد التي يمكن لهذه النباتات أن تقدمها له" [2].

وإذا كانت المعارف والتجارب السابقة في تاريخ الحضارات لا تتنكر لماضيها بسبب حرصها على التواصل، فإن ما تبديه المدنية المعاصرة من تجاوز لهذا التواصل أوقع الإنسانية في كثير من المزالق والمخاطر. ومن أبرز مظاهر هذا التجاوز التشبث بالمعطيات المختبرية التي خلفت حالات صعبة أقضت مضجع الإنسان وأفزعته باكتشافاتها

[1] - راجع: ارنولد توينبي، لمعى المطيعي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة، 1967.

[2] - النباتات الطبيعية وفوائدها، المهندس عماد الكويفي 1993 - 1995، ص: 5/2.

الميكروبية ومستحضراتها الصيدلية مما ظهرت معه "الآثار الجانبية المدمرة للعديد - إن لم تكن لمعظم - العقاقير المحضرة كيماويا"[1].

وإدراكا لخطورة هذا المسلك أحس العالم اليوم بفقدان التوازن بين الإنسان والطبيعة فدعا إلى ضرورة رجوع الإنسان إلى الطبيعة حيث بدا يتلمس طريقه نحو المعالجة بالأعشاب والرجوع إلى الطبيعة لاستلهام الصحة والبقاء"[2].

ومن ثم فإن هذا البحث يتطلع إلى الاهتمام بأمرين:

أولهما: أن التراث العربي الإسلامي في علوم الصيدلة والطب إسهام كبير حقق للإنسانية معطيات جديرة بمعاودة حضورها وتجدد معارفها والاستفادة من خبراتها والتعمق في أهدافها.

والثاني: أن عناية العرب بالطبيعة - باعتبارها مجالا للغذاء والدواء - خلفت تراثا ضخما أقر بفضله الأوائل والأواخر ما دامت معطياته سارية المفعول في تاريخ الطب الحديث.

وذلك من خلال الفواكه خاصة، باعتبارها مصدرا للعلاج الطبيعي في التراث الطبي العربي وقد سعى إليها مجددا الطب المعاصر. وسنحلل الموضوع من خلال الخطاطة الآتية:

- أولا: الفواكه: مكانتها ومصادرها وأصنافها.
- ثانيا: إشكالية المصطلح والمنهج.
- ثالثا: اهتمام العرب بالفواكه بين التصور والإنجاز.
- رابعا: معطيات العلاج الطبيعي بالفواكه.
- خامسا: الفواكه بين الأدوية المفردة والأدوية المركبة.
- سادسا: أوجه التواصل بين التراث الطبي العربي والطب المعاصر.

---

[1] - ن.م.ص 6/3.

[2] - ن.م.ص.

أولا: الفواكه، مكانتها ومصادرها وأصنافها

تتعدد أنواع الغذاء في التراث العربي من لحوم وبقول وحبوب وقطاني وخضر وأفاويه وأبازير وفواكه. وتحتل الفواكه مكانة رفيعة بين مراتب أنواع الغذاء، ومرجع ذلك إلى المجالات الآتية[1]:

1 - اهتمام القرآن الكريم بالفواكه، باعتبارها مما يلتذ به من طعام أهل الجنة. يقول تعالى: (**أولئك لهم رزق معلوم وفواكه وهم مكرومون في جنات النعيم**)[2].

2 - شيوع اللفظ في معاجم اللغة ودلالته في وصف النفس والنساء: فمن معاني فكه تعجب وتنعم وتمتع، والفاكهة من النساء الطيبة النفس الضحوك.

3 - إقبال الناس على تناولها باشتهاء ونهم.

4 - كثرة منافعها في الغذاء والدواء.

5 - عناية الفلاحين بزراعتها ونموها وامتزاج نباتاتها.

6 - اهتمام الصناعة الغذائية والصيدلية بتنوع استعمالاتها شرابا وربوبا ومعاجين.

ونظرا لمكانة الفواكه بين أنواع النبات خصها عديد من العلماء في التراث العربي الإسلامي من مشارقة ومغاربة بالعديد من الأبحاث والدراسات في العديد من المجالات منها الفلاحية (ابن بصال وابن حجاج وأبو الخير والكتبي) ومنها الغذائية (ابن زهر وابن رشد والعجلاني وابن شقرون...) ومنها الأطعماتية (ابن رزين وابن سيار وابن سلطان وابن جزلة). ومنها الطبية (الرازي والسمرقندي وابن إبراهيم المراكشي والأنطاكي...) ومنها الصيدلانية (أبو الصلت والشقروني والغساني والأكفاني...).

---

[1]- راجع في الموضوع: دراستنا وتحقيقنا: " لأرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية " لأبي الحسن علي بن إبراهيم المراكشي الأندلسي المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999

[2] - الصافات، الآيات 41 - 43

إن اهتمام هؤلاء العلماء بالفواكه وما جاء في أبحاثهم من إفادات وإشارات يصعب على الباحث تتبع مقولاتهم عنها باعتبارها من جملة النبات الذي اهتم به التراث العلمي العربي الإسلامي وألف فيه الكثير من المؤلفات والمصنفات. غير أني أشير إلى بعض العلماء الذين خصوا الفواكه بعناية خاصة في تآليفهم، أذكر من بينهم:

- الرازي في كتابه ترتيب الفاكهة[1] وفي تقديم الفواكه قبل الأطعمة[2].

- ابن إبراهيم المراكشي في: أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية[3].

وهناك بعض العلماء الذين خصوا الفواكه بفصول في مصنفاتهم نذكر من بينهم:

- البرقي في كتابه المحاسن[4].

- ابن زهر وابن إبراهيم الرندي في كتابيهما عن التغذية والزهراوي في أدويته [5].

- العسقلاني في أطمعة المرضى[6].

- ابن شقرون في الأرجوزة الشقرونية[7].

---

[1] - مخطوط الاسكوريال 870 (3) و(887).

[2] - مخطوط أيا صوفيا 3724.

[3] - أرجوزة الفواكه، م.س.

[4] - طبع بالنجف، 1964.

[5] - مخطوط الرباط 578 وضمن مجموع ص ص 116 - 124. لم نطلع على تحقيق مركز إحياء التراث العلمي.

[6] - راجع الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي، مدخل ونصوص تقديم واختيار محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط1 - 1990.

[7] - الطب العربي في القرن الثامن عشر من خلال الأرجوزة الشقرونية، تحقيق وتعليق بدر التازي، تعريب وتقديم عبد الهادي التازي. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب 1404 /984، ص: 119 - 133

وتتعدد أصناف الفواكه ويتباين عددها لدى العلماء حسب مناهجهم وعلاقة الفاكهة بجملة النبات عامة، فهي عند العسقلاني مثلا 32 نوعا، وعند ابن إبراهيم المراكشي 21 نوعا. ونذكر بعضها: [1]

التفاح	الباكور	المشماش
الخوخ	الكمثرى	الإجاص
التين	العنب	القراسيا
العناب	التوت	السفرجل
الدلاع	الخيار	القثاء
الجوز	الرطب	البلح
الأترج	الفجل	الزعرور
البلوط	البندق	القسطل
ساسنو	البرقوق	

ثانيا: إشكالية المصطلح والمنهج.

تواجه الباحث في علم النبات والطب والصيدلة في التراث العربي إشكاليتان كبيرتان:

- الأولى: إشكالية المصطلح في تحديد أسماء الفواكه، إذ التداخل بين مسميات النبات يعدُّ ظاهرة عامة، وتتداخل فيها أسباب تتعلق بأمكنة وجودها بين الجبل والسهل، وبين البادية والحاضرة، وتتعلق بأجناس البشر بين العجم والعرب، وبين القبيلة والقبيلة الأخرى.

كما تتعلق حسب لغتها بين الفصيح أو العامي أو الدخيل، كما تتعلق بحسب منطقتها بين الغرب أو الشرق...

[1] - يبدو أن أسماء بعض الفاكهة غير مألوفة عند القارئ مثل (الزعرور *Crataegus azarolus* والعناب *Ziziphus sativus* وساسنو *Arbutus unedo*) مع الإشارة إلى أن شجيرة ساسنو التي تعطي فاكهة حمراء بحجم حب الملوك شكلها قريب من التوت، تنفرد بكونها فاكهة غابوية تنبت بشكل تلقائي وتظهر ثمارها خلال فصل الخريف.(المراجع).

ولعل الفواكه من أكثر أنواع النبات تعددا لمسمياتها، وهذا ما يجعل الباحث يعاني إشكاليات في تحديد مصطلحاتها أو ما تعرف به من أسماء:

فالمشماش هو البرقوق[1]،

والإجاص هو عيون البقر[2] والكمثرى[3] والبرقوق[4]،

وعيون البقر هو الإجاص [5]، والعنب [6]، والمشمش والخوخ [7]، والكمثرى[8] والبرقوق [9]،

والمشتهى هو الزعرور[10]،

والدلاع هو البطيخ [11]،

والخوخ هو التفاح الفارسي [12].

ومثل هذا الاختلاف في مسميات الفواكه أمر شائع في سائر المؤلفات في شتى مجالاتها في الفلاحة والتغذية والطب والصيدلة، وذلك بسبب اعتماد المؤلفين على:

أ ـ المشهور من مسمياتها في بيئاتهم المحلية.

---

[1] ـ عمدة الطبيب في معرفة النبات، أبو الخير الإشبيلي، قدم له وحققه وأعاد ترتيبه محمد العربي الخطابي مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ص: 498.

[2] ـ أرجوزة الفواكه ... لابن إبراهيم المراكشي.

[3] ـ ن. م.

[4] ـ التيسير في المداواة والتدبير، ابن زهر، تحقيق محمد بن عبد الله الروداني، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية الرباط، 991. ص 403.

[5] ـ عمدة الطبيب ص 601.

[6] ـ التسيير، ص: 403، 954.

[7] ـ عمدة الطبيب، ص: 553.

[8] ـ التيسير، ص: 403، 954.

[9] ـ ن.م.ص.

[10] ـ عمدة الطبيب، ص: 46.

[11] ـ ن.م.ص 360.

[12] ـ التيسير، ص: 445، 1067.

ب - إشاراتهم أحيانا إلى مسميات أخرى على سبيل المقارنة.

وأمام مصاعب هذا الاختلاف التي تواجه الباحثين في تتبع هذه الإشكالية في مؤلفات الشرق والغرب الإسلامي ندعو إلى ضرورة وضع معجم عربي موحد لأسماء الفواكه بل لأسماء النبات عموما.[1]

أما ما يتعلق بإشكالية المنهج فإن التراث العلمي العربي في الطب والصيدلة، وإذا كانت تقوم رؤيته على مراعاة نظرية الأخلاط اليونانية، فإن البحث عن مفهوم للنظام الغذائي من خلال سبل التغذية الصحية يعتمد على مراعاة جملة من الأسس العامة تتحدد في الطبائع والأمزجة[2].

فالطبائع هي التي تحدد طبيعة الأجسام سواء في تكوينها أو في عناصرها أو في وظائفها؛ أربعة: الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة. وقد استمدت مقوماتها من العناصر الأساسية: النار والهواء والماء والأرض. ولما كانت كل الأجسام الكائنة تتفاعل فيها مميزات هذه العناصر كانت طبيعة الفواكه العامة تروم نحو هذا التفاعل فللإجاص برودة وللباكور حرارة ... وكذلك إذا كان التداخل بين الطبائع فإن التفاعل يحدد الطبيعة المزدوجة للفواكه، ففي الخوح برودة ورطوبة وفي العنب حرارة ورطوبة.

ولا تحقق الفواكه قيمتها إلا في حالة موافقتها للمزاج البشري أي أن الأمزجة تحدد مدى تداخل الطبائع لتتأسس عليها الأجسام والأحوال الصحية والمرضية.

وتتألف الأمزجة من:

الدم ويتميز مزاجه بالحراة والرطوبة.

---

[1] - إن مشروع معجم عربي موحد لأسماء النبات مشروع لا بد أن تسبقه مشاريع محلية وهذا أقرب إلى الواقعية، وهذا ما أنا بصدد إنجازه عبر مشروع "معجم المصطلحات النباتية في التراث الطبي المغربي" (اسم محلي، عربي، فرنسي، لاتيني). (المراجع)

[2] - راجع في الموضوع: ذهاب الكسوف ونفي الظلمة في علم الطب والطبائع والحكمة، أبو عبد الله ابن عزوز، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، 1133 د.

البلغم ويتميز مزاجه بالبرودة والرطوبة.

الصفراء ويتميز مزاجها بالحرارة واليبوسة.

السوداء ويتميز مزاجها بالبرودة واليبوسة.

ومن ثم كان إدراك أن بعض أنواع العنب يميل من البلغم إلى الدم، والتفاح يميل إلى الصفراء وهي أقرب إلى أحوال الصحة، والمشماش يولد البلغم وهو أقرب إلى أحوال المرض[1].

ومن ثم كان منهج التأليف في مباحث العلماء العرب للفواكه يراعي الأسس الآتية:

أ ـ الإشارة إلى أسماء الفاكهة وأنواعها.

ب- مراعاة غذائها للطبع.

ج ـ مراعاة غذائها للمزاج.

د ـ الإشارة إلى مرتبتها من حيث طبائعها ومن حيث جزؤها وحدُّها.

هـ- الإشارة إلى درجتها.

و ـ وصف طعومها.

ز ـ معطياتها الغذائية من حيث الهضم والعلاج من الأمراض.

ح ـ أوقات تناولها واجتنابها.

ط ـ سبل إصلاحها [2].

وإذا كانت المؤلفات العربية والإسلامية في الطب والصيدلة تتبع هذا السبيل بعناصره فإن اقتصارها على بعضها ـ فيما يتعلق بالطبائع والأمزجة من جهة وبالهضم من جهة أخرى دون العناصر الأخرى مما

[1] ـ راجع الموضوع: أرجوزة الفواكه.م.س.

[2] ـ أرجوزة الفواكه، م.س.ص: 78

يطبع منهج البحث التراثي في الفواكه من حيث أن تأثيرها في الجسم لا يتم إلا بارتكازها على التفاعل بين أمور ثلاثة محددة:

أ ـ تحديد مراتب الفواكه.
ب ـ تحديد خصائصها الطبية.
ج ـ تحديد سبل إصلاح مضارها.

وفي ذلك تختلف مناهج البحث العلمي.

وإذا كان اعتماد التراث العربي على منهج نظرية الأخلاط فإن العرب في إطارها طبعوا مناهجهم في البحث عن أهمية الفواكه في المجالات الغذائية والطبية بكثير من سمات التجديد لتحديد مراتبها سواء في سياق علاقتها بالاعتدال أو بمدى تجاوزها له بانتسابها إلى الأجزاء والحدود المحددة لطبيعتها وفق نظرية الأخلاط.

وذلك نهج استقرأه العلماء العرب والمسلمون من خلال ملاحظتهم وتجاربهم. ويجدر بالذكر أن نظرية الأخلاط حاول البعض من علماء العرب تجاوزها، بل رفضها، على نحو ما نجده لدى ابن النفيس وابن رشد وابن زهر الذين محصوا آراء جالينوس من الوجهة العلمية والمنطقية ونقدوها وخالفوها. ولم يكن هذا التجاوز إلا موقفا علميا من نظرية الأخلاط وإن لم يحدد المعالم البديلة لذلك التجاوز[1].

ولعل هذا التجاوز بمقوماته في التمحيص والنقد والمخالفة لآراء جالينوس مكن عصر النهضة الأروبي من تجاوز نظرية الأخلاط إلى نظرية أخرى أصبحت تشكل البديل المعبر عن البحث في العصر الحديث والذي يقوم على أساس الحاجيات الطاقية المقدرة بالحريرات Les calories التي تؤمن الأيضة Métabolisme باعتبارها مجموعة التحولات الطاقية لمركبات المادة الحية. [2]

---

[1]- راجع في الموضوع: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، فراتز روزنتال، دار الثقافة بيروت، ط3، 1980.

[2]- هذا البديل الذي يقوم على أساس الحاجيات الطاقية يعتبر اليوم قاصرا في إطار ما يسمى الطب الشامل " médecine Holistique هذا المفهوم للطب يعتبر الحاجيات الطاقية

ورغم التباين بين المنهجين القديم والحديث تبدو قيمة أبحاثهما - من خلال ما لهما من توحد في المعطيات - مجالا كبيرا للتوافق بين استعمالات الطب القديم كما انتهت لدى العرب، وبين استعمالات الطب الحديث على نحو ما سنبينه في المباحث اللاحقة.

ثالثا: اهتمام العرب بالفواكه بين التصور والإنجاز

من أبرز المؤلفات التي تتعلق بدراسة الفواكه في التراث العربي ما وجدناه عند محمد بن علي السمرقندي (ت 619 هـ) في النص الآتي:

"في الفواكه والثمار:

إنها قليلة الغذاء بالنسبة إلى الحبوب ولحوم الحيوانات وأجزائها، وإنما خلقت للتفكه به والتداوي لمن يعاف الأدوية ويكرهها، فاجتمعت فيه خصال ثلاث: التفكه والتداوي والتغذية، إن أوثرت إحداهما واستعملت هي لأجلها على شريطة موافقة الطبع والمزاج، كانت الثلثان معاونتين ومهتمتين بها. فلذلك صارت المداواة بها في التغيرات القليلة والعوارض السهلة قبل التسخن والتبرد والتجفف والترطب والاستمساك والاسترسال ونحوها أخف على الطبع وأنجع. ولهذا أمر المعالجون ألا يعدلوا[1] عنها وعن البقول إلا لضرورة، وكذلك أن تفكه المتفكه بها بما يناسب مزاجه منها يوافق حاله كان له فيه الفلاح أيضا وبعض التغذية. وهكذا المتغذي الذي ليست له حاجة إلى كثير غذاء إن أخذها على مراقبة المناسبة لمزاجه أو كانت له المداواة والتفكه والتنعم بها ضمنا. فينبغي أن تتناول لهذه الأغراض الثلاثة وتتعلل بها ولا تستكثر منها كما يستكثر من الأغذية المطلقة، لأن المطلقة منها محرقة للدم، والغليظة مبلغمة له مثقلة للبدن. والفواكه

جزءا من الحاجيات الشاملة التي تحضر فيها المعادن والفيتامينات والمواد الفاعلة النباتية (مضادات الأكسدة ومدرات البول والمسهلات الخفيفة والألياف النباتية...) بشكل جوهري، والملاحظ أن الفاكهة بشكل عام تستجيب لهذه النظرة الشمولية...(المراجع).

[1] - في المخطوط " ولهذا ما أمر المعالجون لا يعدلوا عنها ... ".

الرطبة إنما توافق الرياضيين والمحرورين لأنها ترطب أبدانهم وتزيل ما نابهم من التيبس والقحل وتبردهم تبريدا معتدلا، خاصة إن أكلوها مبردة. إلا أن الاستكثار منها يجعلهم عرضة للحميات العفنة لأن كل ما يملأ الدم (من) مائها يغلي في البدن غليان العصارات في الخارج، وقد تصير تلك المائية حديدية إذا لم يتحلل وبقيت في العروق (...).

والمرار من الفواكه الرطبة: التفهة والحامضة الحلوة والحريفة فإنها تجلب الحميات لتعفين المائي منها للدم وتسديده اللزوجة، والغليظة منها للمجاري، وتسخين المرار منها للبدن لحدة الدم المتولد منها. هذا إذا انهضمت في المعدة ولم تفسد فيها، فأما إذا عفنت في المعدة وفسدت وبلغت في رداءتها واستحالتها إلى الكيفيات الرديئة إلى أن تقارب السم، ينبغي أن يكفي القصد منها لبابها وتجنب قشورها فإنها لا تكاد تهضم فتلصق بالمعدة والأمعاء، وأن تتجنب منها التي لم تدرك ولم تنضج فإن فضل ما قد نضج من جميع الثمار على ما لم ينضج ليس باليسير، والتي عبقت وعقبت أو قاربت العفونة أيضا رديئة، وتجتنب أيضا المضاد منها لمزاج من يطعمه فإن حكمها في هذا الباب حكم اللحمان والحبوب بل حكم الأشربة والربوب. والثمار الرطبة اللينة سريعة الانحدار سريعة النفوذ في البدن كله سريعة الاستفراغ بالبول والتحلل من الجلد ولذلك صارت قليلة الغذاء ... ".[1]

وهذا النص حافل بمقومات الرؤية والمنهج وبأسس التصور والإنجاز، مما يجعلنا أمام نص جدير بالتأمل والتحليل لأنه يمدنا بالمعطيات الآتية:

1 - وعي السمرقندي بالدور الكبير الذي تقوم به الفواكه في حياة الإنسان ويتجسد هذا الدور في أن للفواكه خلالا ثلاثاً:

أ - التغذية، باعتبار أن الفواكه مادة غذائية تتوفر على مقومات تقل أو تكثر تساعد الإنسان على الحياة، وهذا ما يجعلها غذاء صالحا.

[1] - أطعمة المرضى، محمد بن علي السمرقندي، مخطوط خ.ع. الرباط، 578د.

ويراد بالغذاء - حسب معجم روبير - **" مسلسلات من التمثل أو من عدمه التي عمدت في جهاز الكائن الحي وتتيح له العيش السليم وتزوده بالطاقات الجيدة اللازمة"**[1]. مما لا يحقق إدامة حياة الإنسان فحسب، بل يسعى في جوهره إلى تدبير أمور الصحة وصيانة الأبدان والأذهان.

ب - التداوي، باعتبار أن الفواكه تقوم بدور ما - بما هي نبات - يحقق علاجا لبعض الأمراض التي تناسب الإنسان في مختلف مراحل حياته. بل تقوم الفواكه بدور هام، فإذا كان النبات الذي هو أساس الدواء بما له من طعم مر (أحيانا) فإن الإنسان قد يرفضه أو يعافه أو يكرهه، ولمقومات الفاكهة بما لها من طعم حلو تصبح المداواة هي البديل... سواء أكانت بمفردها أو بامتزاجها مع نبات آخر.

ج - التفكه، باعتبار أن الفواكهَ تطلب للتنعم بجمالها والتلذذ بمذاقها والتغذي بطاقاتها، وهي أفضل نبات يشتهيه الإنسان، كما أنها مظهر للنعمة الإلهية على عباده، ولما تثيره في النفس من مظاهر الأنس والسرور وما تشيعه من فرح وانشراح. ومثل هذا الأثر مما يَعْقد الصلة بين خصائص الفواكه وبين النفس الإنسانية.

2 - إقرار العلاقة بين طبيعة الجسد وخصال الفواكه، وفي ذلك الأداء الفاعل المرجو من النبات باعتباره دواء. ولعل السمرقندي في رصد هذه العلاقة يسعى إلى وحدة متكاملة بين الخلال المشار إليها، وإن تفاوت القصد من تناول الفواكه. لذلك فالمداواة بها لِما ينتاب الجسد من عوارض وتغيرات مثل التسخن والتجفف والترطب والاستمساك والاسترسال ضرورية لا يُعدل عنها. ومن ثم كان الانسجام بين طبيعة الجسد ومزاجه وبين خواص الفواكه ضرورة غذائية بها تتحقق السلامة ويتم الفلاح.

3 - وإذا كانت الأغذية تتعدد إلى أغذية مطلقة وأخرى غليظة وثالثة رطبة؛ وإذا كانت المطلقة محرقة للدم والغليظة مُبَلْغِمة له مثقلة

[1] - نقلا عن مجلة أكاديمية المملكة المغربية، ع 7، دجنبر 990، ص: 155.

للبدن؛ فإن الفواكه باعتبارها غذاء رطبا يدل على ما هو لين، والليونة أقرب إلى الاعتدال من الصلابة واليبوسة. وهي إشارة هامة إلى خاصية الفواكه ومفعولها في الجسد. وفي صلاحية الفواكه للرياضيين الذين يبذلون جهدا وطاقة في حركاتهم تثير الحرارة وكذا للمحرورين الذين يتوقون للتخلص من أعراض حرارة أجسامهم؛ ما يجعل أثر الفواكه كبيرا على أبدانهم خاصة إن تناولوها مبردة.

4 - وإذا كانت الفواكه كذلك، فإن الإقبال عليها والإكثار منها يجعل آكلها عرضة للحميات لما في مائها من أثر بليغ في الدم حيث يولد في العروق تعفنا على نحو ما في حرارة الفواكه الرطبة ذات الطعوم: التفهة والحامضة والحلوة والحريفة[1]. فإن الاستكثار منها يجلب الحميات إذا ما انهضمت في المعدة، أما إذا ما عفنت فتقارب خطورتها التسمم. وإذا كان السمرقندي قلما أشار إلى فكرة إصلاح مضار الفواكه التي تنبه لها علماء التغذية في رومهم التوازن الغذائي وفي حرصهم على ملاءمة الغذاء للمزاج البشري ومدى آثاره في الجسم، فإن مطلق الأغذية معرض إلى العفونة في الفواكه خاصة. ومثل هذا الحرص في إصلاح الغذاء - ومنه الفواكه - يدل على وعي التراث العربي في الطب والصيدلة بإمكانيات الوقاية مما قد ينتاب آكلها من أعراض مَرضية.

5 - ولتجنب عفونة الفواكه ومسبباتها المرضية يحذر السمرقندي من:

- قشورها لصعوبة هضمها والتصاقها بالمعدة والأمعاء.

- المضاد منها للمزاج حتى لا يحدث رد فعل في الجسم لعدم استجابة النفس لها.

[1] - التفه من الطعوم عديم المطعم وهو بارد، والحامض يدل على رطوبة خالطتها رطوبة ما، والحلوة تدل على مزاج حار معتدل الحرارة، والحريفة أشدها حرارة لغلبة الحر واليبس. راجع كتاب الكليات لابن رشد ضمن الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي مدخل ونصوص، من تقديم واختيار وتحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص ص 399 - 400.

كما يدعو السمرقندي إلى ضرورة:

- تناول لب الفواكه فقط.

- اختيار النضج منها.

6 - إن تصور السمرقندي للفواكه في بداية قوله أنها قليلة الغذاء بالنسبة إلى الحبوب ولحوم الحيوانات وأجزائها تصور يعتمد في نظره على ما أورده في آخر النص من كون الثمار الرطبة اللينة سريعة الانحدار سريعة النفوذ في البدن كله، سريعة الاستفراغ بالبول والتحلل من الجلد. وفي مثل هذه الحالات لا يحتاج للفواكه أن تحقق غذاء متكاملا يمد الجسم بطاقة فعالة مستديمة.

ورغم أن الشروط التي أشار إليها السمرقندي وتحليله كل فاكهة على حدة يجعل تصوره لا يستجيب لما أنجزه. فكثيرا ما يشير إلى أهمية الفواكه في الغذاء ويستشهد بالقول: التفاح للقلب والسفرجل للمعدة والرمان للكبد، كما يشير إلى أهميتها في المداواة - في حالة ما تسببه الأغذية الغليظة من عسر في الهضم - مما يجعل دورها في عملية الهضم الفاعل الأساس في عملية التغذية إذ أن امتصاص الجسم لمنافع الغذاء يحقق الغاية من الطعام مما يحيل الكيلوس إلى كيموس[1]. ويعني هذا أن معرفة خصوصيات المواد الغذائية - ومنها الفواكه - لا تدرك إلا في ضوء إمكانية هضمها للغذاء.

إن قراءة هذا النص في ضوء ثقافة عصرنا الطبية تستجيب لجملة من الأسس تتعلق بأهمية الفواكه في الغذاء والمداواة. ورغم ما في بعض آراء السمرقندي مما قد يخالف حينا التصور العلمي المعاصر، وخاصة فيما يتعلق بأهمية الفواكه في الغذاء بفضل ما تتوفر عليه من قدرات غذائية هامة، وكذا فيما يتعلق بأهمية قشور بعض الفواكه في العملية الغذائية. يبدو أن أهمية الفواكه في المداواة كعلاج طبيعي يجسد حضورها في الثقافة الطبية المعاصرة نهجا جديدا بتمثل معطيات

[1] -الكيلوس هو الطعام إذا انهضم في المعدة فصار مثل كشك الشعير، والكيموس هو الدم المستحيل عن الغذاء - راجع الأغذية. م.س، ص: 575.

التراث الطبي العربي فيما رامه من فعاليات النبات ومقومات الاستفادة منه.

إن اهتمام العرب بالفواكه اهتمام له من الشيوع ما يعكس مراعاتهم لتدبير أمور حفظ الصحة وما يقرب إليها من غذاء سواء كان:

1 ـ غذاء مطلقا **"وهو الضروري المعتاد الذي يقيم به كل حي أوده لينمو ويتحرك، وهذا هو الغذاء الذي يحيله البدن ليصبح جزءاً منه، أي لمدِّ أنسجة الخلايا بما تحتاج إليه لبقائها"**.

2 ـ أو غذاء دوائيا **"وهو الذي يقصد به مداواة علة أو تقويم خلل في بدن فهو بمنزلة الدواء"**[1].

ولما كان النبات أنواعا وأجناسا وأصنافا وألوانا فإن الفواكه احتلت في تراث الطب العربي مكانة مرموقة لإقبال الناس على تناولها ولإمكانياتها في الغذاء والدواء، لذلك اهتم بها العلماء في مجالات الفلاحة والتغذية والطب والصيدلة وبأحوالها حالتي الصحة والمرض.

ولذلك جاءت تصوراتهم دقيقة بالقدر الذي أنجزوا فيه منهجا سلك الرواية والدراية. ومن ثم اعتمدوا على:

1 ـ **أسس المنهج العلمي ومن أخصها**:

أ ـ الملاحظة التي تقوم على أساس معاينة العلائق بين عناصر الكون.

ب ـ التجربة التي تسلك سبل صحة الملاحظة والتحقق من نتائجها، متوسلين في ذلك بالاستقراء والاستنباط.

2 ـ مصادر تتعلق بجملة من المصنفات الطبية، وفي مقدمتها:

أ ـ الطب النبوي.

ب ـ كتب جالينوس وغيره في الطب والصيدلة.

[1] ـ الأغذية والأشربة. م.س. ص: 35.

وبمثل هذا التصور والإنجاز كان فضل التراث العربي في المجالات المشار إليها على النهضة الأوربية عظيما، كما كان التواصل في ذلك قائما على نحو ما سنشير إليه في المبحث الأخير من هذه الدراسة.

رابعا: معطيات العلاج الطبيعي للفواكه

إن لمقاربة معطيات الفواكه في العلاج الطبيعي إشكالية في تناولها، فسواء إن حددنا خصائص الفواكه في العلاج الطبيعي أو إن حددنا الأمراض وما يعالجها من الفواكه، سيكون التداخل واردا بين الغذاء المطلق والغذاء الدوائي المشار إليها آنفا.

ونظرا لضرورة لفت النظر إلى قيمة الفواكه كغذاء ودواء نحرص على مقاربة بعض الخصوصيات التي تمتاز بها الفواكه لعلاج بعض الأعراض المرضية، لذلك فلا مندوحة من نهج الانتقاء كوسيلة إجرائية لإجمال المقاصد. وعذري في ذلك تعدد الخصوصيات للفواكه وإمكانياتها في العلاج الطبيعي مما يصعب على هذه الدراسة تتبعها واستيفاء القول فيها[1] نظرا لكثرة الفواكه وكثرة الأعراض. ولعلنا نروم استقبالا التفصيل فيما أجملناه حين ندرس كل فاكهة على حدة[2].

1 - المشمش مسكن للعطش ونافع من خشونة الحلق والصدر والرئة.

2 - التين عامة نافع من المغص العارض والأوجاع، واليابس منه يغذي غذاء جيدا ينفع المرضى الذين تجهمت ألوانهم، ويلين الصدر وقصبة الرئة.

3 - التفاح مقو للقلب والمعدة، وإذا شم يزكي العقل ويقوي الدماغ.

4 - الإجاص مبرد ومرطب، مقو للمعدة، منق للبدن ومصف للدم.

---

[1] - لن نشير إلى المصادر فغالبها تتوارد فيها الخصوصيات وتتواصل فيها المعلومات.

[2] - سبق أن قمنا بدراسة عن: الفواكه بين التراث العربي وعلم التغذية الحديث، فاكهة العنب نموذجا. أنظر هذا الكتاب: ص ص: 101-124.

5 - القراسيا تلين الطباع وتحسن اللون وحامضها ينفع في المعدة والسعال.

6 - الخوخ جيد للمعدة مشه للطعام وعصيره طارد للديدان.

7 - العنب كالتين من أكثر الفواكه غذاء، من خواصه أنه نافع من السعال وملين للبطن ومسخن للبدن.

8 - الرمان مغذ للطبائع نافع للصدر ومرطب للمعدة. لعصيره وقشوره عدة منافع.

9 - السفرجل مقو للمعدة، مفرح للقلب، قاطع للإسهال، نافع في القولنج، مدر للبول.

10 - التوت نافع في تليين البطن وخشونة اللثة والحلق والصدر يستعمل ربه وعصيره وورقه.

11 - العناب نافع في الإسهال المزمن، قاطع لنزف الدم.

12 - المشتهى عاقد للبطن.

13 - الدلاع نافع من الحميات المحرقة.

14 - البطيخ منق للكلى والمثانة، مدرّ للبول.

15 - البلح دابغ للمعدة واللثة والفم قاطع للإسهال.

16 - الرطب مخصب للبدن البارد المزاج وإذا طبخ نفع من الخناق ونفط اللهاة.

17 - اللوز نافع من السعال المزمن والربو.

18 - الجوز إذا أكل بالتين هو شفاء للسموم.

19 - الخيار مسكن للهيب المعدة مدر للبول إذا شم أنعش من الغشي.

20 - القثاء مسكن للحرارة والعطش نافع في شدة التهاب المعدة.

... [1]

[1]- إن هذه الخواص المستنبطة من التراث الطبي والغذائي العربي وردت معظمها في مصادر المعرفة بالفواكه في أوربا.

وتكثر الفواكه وتتعدد الخصائص، وفيما ذكرناه من المشهور منها ما يعد سبيلا إلى العلاج الطبيعي سواء في تناولها كغذاء أو كدواء، ولا تتحقق معطيات العلاج الطبيعي للفواكه إلا في الالتزام بالشروط التي أقرها الطب العربي:

أ ـ إصلاح معيار الفواكه بتناول أغذية أخرى مصاحبة لها لما قد تحدثه بعض الفواكه من تغيرات طارئة تسبب بعض الأعراض غير المرغوب فيها، فالإدمان على أكل التفاح يورث النسيان، وأكل الكمثرى على الصوم يولد الرياح وكثرة أكل السفرجل تحدث القولنج ووجع الأعصاب... [1]

وقد افترض أحد الباحثين[2] ثلاث فرضيات شارحة لفكرة الإصلاح في التغذية:

أ ـ مصلحات قد يكون الهدف منها إحداث توازن في مزاج الغذاء نفسه على نحو ما نراه في تناول الباكور والفجل وما يحدثه من عسر الهضم:

أصـــلحه بالتوابـــل الزكيـــه وصـــعتر وحاشـــة بريـــه [3]

وإذا كان القثاء بطيء الهضم:

أصـلحه بـالملح وكلـه بالرطـب أو عسل النحل الصفي المنتخب[4]

ب ـ مصلحات قد يكون الهدف منها جعل الغذاء كاملا من الناحية الغذائية مثلما نجده في القراسيا:

إصـــلاحه الجـــوارش الزكيـــة مـــن فلفـــل وقرفـــة ســـنية[1]

أذكر على سبيل المثال الكتاب المرجعي Henri Leclerc: les Fruits de France et les principaux fruits des colonies (2ème édition, 1950) (المراجع).

[1]- يلاحظ في هذه الفقرة (إصلاح معيار الفواكه) أن الأمثلة الواردة فيها مجانبة بشكل عام لما يعرف اليوم عن هذه الفواكه. (المراجع)

[2] - الطب العربي في القرن الثامن عشر م.س.ص: 33.

[3] - أرجوزة الفواكه (البيت 50) م.س.

[4] - ن.م(البيت 226) م.س.

ج ـ مصلحات قد يكون الهدف منها تسهيل الهضم كما في البلح:

..... أصـــلحه بـــالمرق الســـمين[2]

د ـ ونضيف افتراضا رابعا: مصلحا ت قد يكون الهدف منها إحداث توازن بين الغذاء ومزاج الإنسان كما في البطيخ:

إصـــلاحه مســـتعجلا يكـــون لكـــل مـــر حـــار ســـكنجبين
وبـــارد المـــزاج فليســـتعمل جـــوارش الفلفـــل أو قرنفـــل[3]

ومثل هذه الفرضيات قد تبدو متداخلة في مناحيها لما في طبيعة الأغذية من إمكانيات التكامل.

ولعل في حرص العلماء على فكرة الإصلاح تأثرا واضح المعالم بثنائية النفع والضرر التي نهلوا منها على جهة الافتراض حينا واليقين حينا آخر، مما يجعل الطعام الواحد كالذات الإنسانية مجالا للثنائية، نفيد مما هو نافع ونصلح مما هو ضار فيها.

ومن ثم كانت فكرة الإصلاح عامة، لكلا التصور والإنجاز مما يقتضي تمحيصه في البحث العلمي.

2 ـ **أكل الفواكه غضة وحلوة**:

لقد حرص العلماء العرب على ضرورة تجنب الفج من الفواكه وكذا الحامض منها لما في أكلها من مضار تعسر الهضم وتعدم الفائدة. فالتفاح:

وكـــل حـــامض مـــن التفـــاح داعـــي الســـقام عـــادم الصـــلاح
كـــذلك الفـــج غلـــيظ قـــابض واليبس والبرد مزاج الحامض
والحلـــو مائـــل للاعتـــدال ولـــيس مـــن حـــرارة بخـــال[1]

---

[1] -ن. م (البيت 85) م.س.
[2]- ن.م (البيت 278)م.س.
[3]- أرجوزة الفواكه، (البيت 265 و266) م.س.

والتوت:

والفـــج منهـــا كلّـــه ثقيـــل ومســـــدد مبـــــرد قليـــــل

ومن ثم دعا العلماء إلى تناول الفواكه إثر جنيها، وكثيرا ما نهوا عن تناول المجني البائت منها كالباكور والتوت مثلا. وتتفاوت خواص الفواكه في طبيعتها وسرعة نفاذها في الجسم في حالات مرضية، فالمر والحامض والتفه والعافص صالح أحيانا للدواء حسب طبيعة المرض والمزاج.

3 ـ **توقيت أكل الفواكه**:

كما أن لتوقيت تناول الفواكه أهمية بالغة في تحقيق منافعها ودفع مضارها فالمشماش لا يؤكل عشية، والباكور لا يؤخذ في آخر النهار، أما الكمثرى والتين والعنب فبدون تحديد زماني غالبا. ولذلك حبذ العلماء أكل بعض الفواكه قبل الطعام كالإجاص والعنب، أو على الصوم كاللوز، أو بعد الأكل كالسفرجل، أو مطلقا كالرمان والدلاع، أو خارج أوقات الطعام كالقراسيا.

ومثل هذه الشروط وغيرها ـ مما حرص العلماء على مراعاتها ـ فاعلة في ضبط منافع الفواكه في الغذاء والدواء.

خامسا: الفواكه بين الأدوية المفردة والأدوية المركبة

اهتم العرب بالنبات وأولوا له عناية فائقة بحرصهم على المداواة به التي اتخذت سبلا ثلاثة:

1 ـ التداوي بالغذاء الطبيعي.

2 ـ التداوي بالنبات المفرد (الأدوية المفردة).

3 ـ التداوي بنباتات متعددة (الأدوية المركبة).

وتبدو أهمية الغذاء الطبيعي في:

---

[1] ـالأرجوزة الشقرونية (الأبيات 261 و262 و263) م.س.

1 - تحقيق الوعي الصحي للإنسان.

2 - المداواة الذاتية والمباشرة.

3 - بساطة العلاج وسهولة تناوله.

4 - توفر الدواء بحسب الفصول.

5 - سرعة نفوذه في الجسم.

وقد استجابت الفواكه بإمكانياتها الغذائية وخواصها الطبية فكانت للمداواة بها المكانة المرموقة. ومن ثم كانت صلاحيتها بالشروط السالفة الذكر لعديد من الأعراض المرضية، وفي مقدمتها الحميات التي يبددها الرمان والدلاع، والسعال الذي ينفعه العناب والرمان، وحرقة البول وألم المثانة اللذين يزيلهما الدلاع، ودر البول وإخراج الحصاة اللذين يعالجهما البطيخ، وعسر الولادة الذي يزيله الرطب، وضعف المعدة الذي يقويه الإجاص والخوخ والعنب، والتهاب اللثات الذي يضمده البلح والتوت، وخفقان القلب الذي يذهبه السفرجل...

ولا يقتصر الأمر على علاج الفواكه لعدد من الأمراض، بل إن للفواكه أهمية بالغة في التجميل[1] من حيث أنها تشكل مادة تسهم في حفظ الصحة بما له صلة بجسد الإنسان على نحو ما نجده في فاكهة البطيخ من ترطيب أيدي النساء، وما نجده في فاكهة التين التي يضيف التغذي بها لونا مشرقا. وفي هذا الصدد نجد أن فاكهة السفرجل صالحة للغذاء أثناء حمل النساء في الشهر الرابع خاصة إن أكلت جاء المولود حسن الصورة:

إن أكلت امرأة سفرجلا في رابع الأشهر كان أجملا

يأتي الذي تلده مثل القمر صورته تكون أحسن الصور[2]

[1] - راجع المقالة التاسعة عشر من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي، انظرها في الأغذية والأدوية، م.س، ص ص 291 – 294.

[2] - راجع أرجوزة الفواكه (البيتان 185 – 186) م.س.

كما أن العلاج بالفواكه من جهة ثالثة يحرص على إشاعة أثرها في النفس الذي يثيره بعضها في حالات الانشراح والسرور، مما يعقِد ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ الصلة بين خصائص الفواكه وبين النفس الإنسانية، فالتفاح يولد السرور والفرح والسفرجل فيه مسرة النفس والعنب يذهب الغم... [1]

أما التداوي بنوع محدد من النبات هو ما اصطلح على تسميته بالأدوية المفردة (أو الأقرباذين) فقد اهتم العلماء العرب به اهتماما بالغا تعكسه هذه الوفرة من المصنفات التي ألفوها في الطب والصيدلة.

وتشكل الأدوية المفردة صناعة صيدلية استغلت الفواكه باعتبار خصوصيتها الشفائية للعديد من الأمراض. وقد اتخذت هذه الصناعة عدة أنماط وأشكال منها الطيب والأشربة والأدهان والصموغ والمراهم والربوب وغيرها مستفيدة من إمكانيات الفواكه فيما يتعلق بمياهها وقشورها وبروزها وجوارشها ... فمن عصير التفاح يستخلص ماء يتطيب به وشراب يقوي القلب ويفرح ويجدد النشاط.

ومن عصير الرمان شراب ينفع في إطفاء العطش وتليين البطن وتقوية البصر وربّه يمنع من فساد الأطعمة في المعدة.

ومن تقطير العناب وطبيخه شراب صالح للهزال والسعال.

ومن شجر الإجاص صمغ يفتت الحصى ويلزق القروح.

ومن شجر القراسيا[2] صمغ يحسن اللون ويحد البصر وينهض الشهوة.

ومن اللوز دهن ينقي الكلية والمتانة، وينفع من الكلف والنمش والآثار.

ومن طبيخ التين والغرغرة به تتحلل أورام قصبة الرئة.

---

[1] ـ هناك نوع الإجماع الحاصل حول خصائص هذه الفواكه في المجال النفسي وموافقة الكتب العلمية المعاصرة لذلك خصوصا كتاب Henri Leclerc المذكور.. (المراجع).

[2] ـ القراسيا أو القراصيا الذي يرجح أنه نوع من البرقوق خصوصا منه الطويل الذي يجفف..(المراجع)

ومن أبرز الأدوية المفردة وأكثرها التي تصنع من الفواكه هي الربوب[1]. فمن العنب والتين والتفاح والسفرجل والرمان والإجاص والأثرج والبلح والتوت... تصنع ربوب أشربة نافعة من عدد من الأعراض والأمراض مما أشرنا إلى بعضه ومما لم نشر إليه لطول استقصائه وصعوبة تتبعه.

وأما الأدوية المركبة فإن للفواكه فيها حضورا هاما يتيح للنباتات الأخرى تفاعلا وتعضيدا يمكنها من صلاحيتها للعلاج، فالتين إذا خلط بدقيق الشعير والحلبة عمل منه ضماد يحلل الأورام.

ومن ماء الحصرم[2] وماء الرمان الحامض وماء التفاح الحامض مع ماء الهندباء وماء الورد يهيأ شراب ينفع من الحر المفرط في الكبد ومن الحميات الحادة المحترقة[3].

ومن ماء الكمثرى وماء السفرجل وماء الرمان المر وماء التفاح المر بالإضافة إلى عود الطيب وقرنفل ومصطكى يهيأ شراب يقوي المعدة وينفع في الإسهال ويقطع القيء [4].

ولا تقتصر الفواكه على دور التفاعل والتعضيد الشفائي، بل تتجاوز إلى دور الإصلاح لمنع أضرار بعض النباتات الطبية: فالسقمونيا التي تضر بالأحشاء والمعدة والكبد وتسقط الشهوة وتكرب وتغشي يتحدد إصلاحها في أن تعجن بماء السفرجل والتفاح وتجفف في الظل ويضاف إليها الأنيسون والمصطكى[5]..

ولا تقوم صناعة الدواء إلا إذا تحدد أمران أساسيان:

---

[1] - راجع الأغذية والأدوية. م.س، ص: 266.

[2] - الحصرم (العنب قبل نضجه) و عصيره مشروب شائع في الشام خصوصا عند أهل حلب.. (المراجع).

[3] - الأغذية والأدوية، م.س. ص 263.

[4] - الأغذية والأدوية، م.س، ص: 265.

[5] - الأغذية والأدوية، م.س، ص 344/ المصطكى صمغ شجيرة الضرو *Pistacia lentiscus* (المراجع).

1 - مقادير استعمال الأدوية، وقد حفل التراث العلمي العربي بكثير من الدقة في تحديد موازين كل نبات بدءاً من القيراط (0,2 غ) إلى التقفيز (56 كلغ)[1].

2 - مدة صلاحيتها، وقد راعى التراث العلمي العربي مدة صلاحية الدواء معتمدا في ذلك على التجربة، فالأصماغ أكثر الأدوية بقاء تصل صلاحيتها إلى نحو 30 عاما، والعصارات في نحو عشرة أعوام، والأدهان في نحو عامين، أما الربوب فقد تبقى صلاحيتها في نحو 7 أعوام[2].

وفي مراعاة هذين الأمرين نَعِي واقع البحث العلمي في التراث العربي ومدة موضوعيته ودقة وسائله الإجرائية.

وأمام تعدد إمكانية الفواكه سواء في إطار الغذاء الطبيعي أو التداوي بالنبات المفرد (الأدوية المفردة) أو التداوي بنباتات متعددة (الأدوية المركبة) تتضح قيمتها الجلية في الصناعة الصيدلية وخصائصها الطبية بتطور وإعجاز علمي دقيق. وما أشرنا إليه إنما هو قل من كثر مما زخرت به المصنفات العربية من التراث العلمي في الطب والصيدلة طوال العصور الإسلامية.

سادسا: أوجُه التواصل بين التراث الطبي العربي والطب الحديث

وحين المقارنة بين العلماء القدماء والمحدثين والمعاصرين - أي بين علماء العرب والغرب - فيما يخص الفواكه دراسة وتحليلا، تواجهنا إشكالات وضع التراث والمعاصرة، وبالضبط في مدى أهمية العلائق

[1]- راجع لائحة الاوزان المشهورة المستعملة قديما في الصيدلة: الأغذية والأدوية، ص: 525 و526.

[2]- راجع المقالة التاسعة والعشرين من كتاب التعريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي، انظرها في الأغذية والأدوية م.س. ص ص: 297 – 302. / من مصادر أعمار العقاقير عمل مغربي مختص وهو منظومة في أعمار العقاقير المفردة والأدوية المركبة لصاحبها الطبيب أبي الفضل محمد بن القاسم العجلاني السلاوي مخطوط المكتبة الملكية ضمن مجموع رقم 515..(المراجع)

العلمية بينهما، خاصة أن التراث العربي في الفلاحة والطب اتسم بأمرين اثنين:

1 - في تأثره بالتراث الإنساني عامة واليوناني خاصة.

2 - في تأثيره في النهضة العلمية التي عرفتها أوربا.

ولم يكن هذا التأثير وذلك التأثر إلا مجالا للإبداع العربي في آفاق الملاحظة والتجربة حيث أن تفوقه في مجال الفلاحة والغذاء والأطعماتية والطب والصيدلة يعدُّ من المسلمات اليوم في البحث العلمي المعاصر. ويجدر بنا أن نشير إلى أن إسهام علماء العرب في علوم النبات خاصة بدءاً من الفلاحة النبطية لابن وحشية وكتاب الفلاحة لابن بصال وغيرهما كثير، يعدُّ ثروة علمية كبيرة لم تحتفظ بعلوم الأقدمين فحسب، بل أسهمت بمناهج التجربة والملاحظة والاختيار والمعاينة في دراسة النبات وأحواله وأنواعه ومراتبه وكل ما يتعلق به. وبذلك أرسى الإبداع العربي في علوم النبات والطب والصيدلة قواعد البحث العلمي بكل دقة وعمق[1].

لذلك كان فضل العرب على الأوربيين عظيما على نحو ما يقرره لويس إميلي سيديو وريناldي وشارل سينوريوس وغيرهم ممن أقروا بفضل العرب الذين نقلوا فضائل النبات من الشرق إلى الغرب. وقد نالت الفواكه اهتماما في هذا العبور، حيث انتشرت فواكه من جملتها المشمش والبرتقال والبطيخ، وغيرها من أنواع الفاكهة والنباتات الأخرى بل درست خصائصها ومقوماتها ومميزاتها مما يجعلها اليوم حاضرة بشكل فعال حيث التوافق بين معطيات علوم النبات العربية وبين النتائج العلمية التي توصل إليها الغرب رغم اختلاف الرؤى والمناهج مما يستوقف النظر.[2]

---

[1]- راجع في الموضوع: إسهام علماء العرب المسلمين في علم النبات، علي عبد الله دفاع، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1985.

[2]- نحيل على عمل Henri Leclerc السابق فهو أحسن مرجع يضبط المنابع الأصلية للفواكه وانتشارها عبر العالم.. (المراجع)

وحين نجد أنفسنا أمام منهجين مختلفين قديم متجاوز، ومعاصر متطور، فإن مقاربة التقريب بين معطياتهما تتم - كما يرى أحد الباحثين المغاربة[1]- من خلال أمور ثلاثة:

1 - تصنيف الأغذية.

2 - النظام الغذائي.

3 - خصائص الأغذية.

ومن خلال المقاربات نلحظ أوجه التوافق في معطيات الفواكه في سياقها التاريخي أي في استعمالات الفواكه - كقيمة غذائية في علاج الأمراض - بين الطب العربي القديم والطب الغربي المعاصر، وإدراك هذا التوافق يجعل حضور رؤية الطب العربي ما تزال فعالة ويؤكد جدواها مدى الإحساس بجدية العلوم العربية الإسلامية ومدى استشرافها إلى مقومات النبات ومعطياته العلاجية من خلال تحليله وإدراك خواصه ومنافعه. ويمكن أن نستشهد في هذا السياق ما يخص بعض الفواكه وقيمتها الغذائية في العلاج من الأمراض والأعراض مما توافق فيه الطب العربي القديم والطب الغربي المعاصر:

- التفاح والسفرجل مما يقوي القلب.
- الإجاص والبلح مما يرطب المعدة.
- العناب والقثاء والبطيخ مما يدر البول.
- التين مما ينفع في حالة الإمساك.
- الرمان واللوز مما ينفع في السعال والتنفس.
- التوت مما ينفع في التهاب الفم[2].

....

[1]- الطب.... من خلال الأرجوزة الشقرونية، م.س. ص: 34.

[2]- رجعنا في المقارنة إلى عدد من المراجع العربية التي درست الأعشاب.

إن انسجام هذه المعطيات بين التراث العربي وعلم التغذية المعاصر وصلتها بتدبير الصحة أمر لم يعد مشروعا أو فرضية، بل حقيقة أكدت عليها كثير من الدراسات في شتى مجالات المعرفة التي أجمعت على "أن الطريقة التاريخية هي أحسن الطرق لتثبيت المعلومات الحديثة في أذهان الدارسين. وأن المعلومات الحديثة بدون دراسة تاريخها ذات علاقة بالماضي ستكون قلعة الجذور ومضطربة"[1].

خاتمة:

وأخيرا فإننا نقصد بهده الدراسة عن الفواكه باعتبارها علاجا طبيعيا في التراث العربي الإشارة إلى جملة من المعطيات:

1 - أهمية الفواكه في الغذاء والمداواة والتفكه - باعتبار ذلك مجالات هامة ومتداخلة - تحتاج إليه الحياة البشرية.

2 - إسهام الحضارة العربية في علم النبات وفي الفواكه خاصة إسهام له من الجدة والطرافة والدقة والتميز مما يجب لفت النظر إليه لأهميته.

3 - نشر الوعي بطبيعة الغذاء في سياق الدعوة إلى الأمن الصحي الذي يسعى إليه المجتمع الإنساني.

4 - غنى التراث العلمي العربي في الفلاحة والغذاء والأطعماتية والطب والصيدلة بفضل الملاحظة والتجربة في التاريخ الإنساني بما حفظه من معارف الأقدمين وما طوره من علوم وما اتسمت به من معطيات، مما مكن الغرب من ثورة علمية متطورة.

5 - إن منهج العرب في دراسة المكونات الفعالة في الفواكه في الطبائع والأمزجة قد توافقت معطياته إلى حد كبير مع النتائج العلمية التي وصل إليها الغرب في منهجه المعتمد على تحديد الحريرات les

[1] - إسهام علماء العرب ... م.س. ص: 15.

calories أو مراعاة الطاقة الغذائية لكل أنواع النبات والغذاء وساهمت في ذلك التحليلات الصيدلية الدقيقة.[1]

6- إن الغرب أدرك مخاطر المواد الكيماوية المصنعة في الأدوية الحديثة وما تولد عن ذلك من أمراض ومضاعفات، فدعا هو نفسه إلى البحث عن البديل لعلاج شمولي من خلال العودة إلى الطبيعة التي أولى لها التراث القديم عناية فائقة. ولن يكون لذلك من سبيل إلا بالعودة إلى التراث العربي الذي حافظ على التراث القديم ومنه اليوناني خاصة والذي طوره بملاحظاته وتجاربه طوال عدة قرون.

إن هذه الإشارات إلى جملة من المعطيات التي ترومها هذه الدراسة دعوة إلى تجديد رؤية البحث والدرس في التراث العلمي في مجالاته المتعددة الفلاحية والغذائية والأطعماتية والطبية والصيدلانية ...

والله الأمر من قبل ومن بعد.

[1]- الملاحظ قصور نظرية الحريرات وعدم كفايتها لتقييم أنواع الغذاء... (المراجع)

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- أدوية الزهراوي، مخطوط خ.و. الرباط 578 د ضمن مجموع
- أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية "لأبي الحسن علي بن إبراهيم المراكشي الأندلسي تحقيق ودراسة عبد الله بنصر العلوي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999
- ارنولد توينبي، لمعى المطيعي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة، 1967.
- النباتات الطبيعية وفوائدها، المهندس عماد الكويفي 1993 - 1995
- إسهام علماء العرب المسلمين في علم النبات، علي عبد الله دفاع، مؤسسة الرسالة، ط 1
- الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي مدخل ونصوص تقديم واختيار محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط1 - 1990
- أطعمة المرضى، محمد بن علي السمرقندي، مخطوط خ.و. الرباط، 578د.
- ترتيب الفاكهة، الرازي، مخطوط الاسكوريال 870 (3) و(887)
- التغذية، الرندي، مخطوط خ. و. الرباط 578 د ضمن مجموع
- تقديم الفاكهة قبل الأطعمة للرازي، مخطوط أيا صوفيا 3724.
- التغذية، ابن زهر، خ. و. الرباط 578 د ضمن مجموع
- التيسير في المداواة والتدبير، ابن زهر، تحقيق محمد بن عبد الله الروداني، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية الرباط، 1991.
- ذهاب الكسوف ونفي الظلمة في علم الطب والطبائع والحكمة، أبو عبد الله ابن عزوز، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، 1133 د. خ. و.

- عمدة الطبيب في معرفة النبات، أبو الخير الإشبيلي، قدم له وحققه وأعاد ترتيبه محمد العربي الخطابي بمطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1990.
- الفواكه بين التراث العربي وعلم التغذية الحديث، فاكهة العنب نموذجا. وهو بحث قدم إلى المجلس الأعلى للعلوم، في أسبوع العلم الثامن والثلاثين، دمشق، ماي 1998.
- الطب العربي في القرن الثامن عشر من خلال الأرجوزة الشقرونية، تحقيق وتعليق بدر التازي، تعريب وتقديم عبد الهادي التازي. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب 1404 /1984.
- النباتات الطبيعية وفوائدها، المهندس عماد الكويفي 1993-1995.
- مجلة أكاديمية المملكة المغربية، ع 7، دجنبر 990.
- المقالة التاسعة عشر من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي، انظرها في الأغذية والأدوية، (ص ص 291 - 294).

الفواكه بين التراث العربي وعلم التغذية الحديث

فاكهة العنب نموذجا*

تقديم:

تحتل الفواكه مكانة رفيعة بين مراتب أنواع الغذاء، بما لها قيمة شفائية لكثير من الأدواء. وقد خصها بالبحث عديد من العلماء العرب، نذكر من بينهم السمرقندي وابن زهر والغساني وابن إبراهيم وابن شقرون... وغيرهم، كما خصها بالبحث عديد من علماء الغرب، نذكر من بينهم مكفادن وفالنيه ولوكليرك...

ورغم اختلاف مناهج الدراسة والتحليل فإن مشروع البحث يسعى إلى إبراز مدى أوجه التوافق بين نتائج التغذية في التراث العربي القديم وبين استعمالات علم التغذية الحديث مما يجعل النتائج منسجمة.

ويتخذ هذا البحث فاكهة العنب:GRAPES - RAISIN - لكونها أكثر الفواكه غنى بالمواد الغذائية ـ نموذجا للتحليل من خلال جملة من العناصر باعتبار العنب:

أ ـ نباتا / ب ـ غذاء / ج ـ دواء

أولا ـ تعريف الغذاء:

يراد بالغذاء - حسب معجم روبير - "مسلسلات من التمثل أو من عدمه التي تَحدُث في جهاز الكائن الحي وتتيح له العيش السليم وتزوده بالطاقات الحية اللازمة"[1]

ويعني ذلك الإقرار بقيمة التغذية باعتبارها ضرورة أساسية للكائن الحي تحقق الاستفادة من النبات والحيوان مما أنعم به الله تعالى على المؤمنين: (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون)[2].

وقد أثمر البحث في أمور الغذاء عن جملة وافرة من العلوم كان على رأسها علم الأطعمة، أي العلم الذي يبحث عن "كيفية تركيب الأطعمة اللذيذة والنافعة بحسب الأمزجة المختلفة"[3]. وقد تطلب ذلك

[1] - نقلا عن مجلة أكاديمية المملكة المغربية، ع7، دجنبر 1990، ص: 155.
[2]- سورة الطور الآية: 22.
[3]- مفتاح السعادة، طاش كبري زاده، طبعة حيدراباد، ص 322/1.

البحث في النبات ـ باعتباره قوام الغذاء ـ فكانت علوم الفلاحة والصيدلة والطب لا تسعى إلى ما من شأنه إدامة حياة الإنسان فحسب، ولكنها تسعى أيضا إلى تدبير أمور الصحة وصيانة الأبدان والأذهان.

ومن ثم "كان تحديد الأغذية وكيفية استعمالها وطرق استهلاكها وتبيين مضارها ومنافعها مما نجده في كثير من المؤلفات الخاصة وغيرها من كتب الأدب والفهارس والتراجم والرحلات والحسبة والشعر؛ خصوصا كتب الطب التي ربطت بين موضوع التمريض والمعالجة بموضوع الأغذية والأشربة حيث التزاوج بينهما واضحا والتماسك قارا"[1].

ولما كان إحساس الأطباء بضرورة مداواة المرض بتقدير الغذاء قبل اختيار الدواء سبيلا إلى إقرار ما في الغذاء من دواء طبيعي، وهو ما يجعله جديرا اليوم بوصل الصلة بين القدماء والمعاصرين.

ولعل في حرص القدماء على المداواة بالمواد الغذائية[2] ـ رغم احتياجهم إلى الدواء المفرد والمركب ـ ما يعكس القيمة العلاجية لما يتناوله الإنسان من غذاء.

ثانيا- اهتمام العرب والغرب بالفواكه:

نظرا لمكانة الفواكه الرفيعة فقد خصها عديد من العلماء بأبحاث ودراسات، نذكر من بينهم: السمرقندي وداود الأنطاكي من المشارقة... وابن زهر وابن رشد الرندي من الأندلسيين... وعلي بن إبراهيم المراكشي وابن خلف القيسي وعبد الرحمن الفاسي وعبد القادر بن

[1]- فضالة الخوان في طيبات الطعام، ابن رزين التجيبي، تقديم وتحقيق محمد بن شقرون، مطبعة الرسالة، الرباط، 1981، ص: ث

[2]- راجع في الموضوع: غنية اللبيب عند غيبة الطبيب، محمد بن إبراهيم بن ساعد، تحقيق صالح محمد ابن عباس، منشورات مركز التراث، بغداد، 1988، ص: 67.

شقرون من المغاربة... وهؤلاء العلماء قل من كثر زخر بهم التراث العلمي العربي في المشرق والغرب الإسلامي.[1]

أما بالنسبة لعلماء الغرب فقد اهتموا بالفواكه اهتماهم بالنبات نذكر من بينهم:

بوميت Pomet في كتابه التاريخ العام للعقاقير. 1675

ليميري Lemery في كتابه العقاقير البسيطة 1697.

بنتام Bentham وهوكر Hooker في كتابهما أجناس النباتات 1883.

بالإضافة إلى العلماء الاختصاصيين في الطب الطبيعي كبرنارد مكفادن Bernard Mecfadden ونارودسكي Marc E Narotsky وجون فالنيه Jaen valnet. هنري لوكليرك Henri Leclerc

ثالثا ـ منهج الغرب في علم التغذية:

ورغم أن الأسس العلمية المعاصرة قد تجاوزت نظرية الأخلاط اليونانية التي اعتمدها الطب الاسلامي، فإنها (أي الأسس) كانت واعية بمكاسبها المقصدية التي ظلت أساس النظرية السائدة حتى أواخر القرن التاسع عشر[2].

وإذا كان المنهج العلمي المعاصر في علم التغذية يقوم على الحاجات الطاقية المقدرة بالحريرات Les calories التي تؤمن الأيضة Métabolisme باعتبارها مجموعة التحولات الكيماوية الطاقية

[1]- راجع في الموضوع: الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي، مدخل ونصوص، تقديم واختيار محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990.

[2]- الطب العربي، مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به، أمين أسعد خير الله، بيروت، 1946.

لمركبات المادة الحية؛ فإن دور الأغذية يتحدد في تأمين الطاقة[1] بفضل محتوياتها من السكريات والدهنيات والبروتيدات من خلال إقرار التوازن والتناسب. وكي تكون التغذية كاملة يجب تزويد الجسم وبكميات محددة جدا بالمواد التي يعجز عن تمثلها والتي يمكن إجمالها في بعض الأحماض الأمينية الضرورية والحيمنيات (أي الفيتامينات) والأملاح المعدنية الضرورية غير الأساسية Les oligo-élément[2].

وعند تحليل الفواكه نجد بعضها مصدرا طيبا للبوتاسيوم وفيتامين ج وبعضها مصدراً مفيداً للكاروتين والحديد. أما البروتين والدهنيات فكمياتهما في الفواكه متفاوت[3]. ونستطرد هنا لنستحضر في سياق الملاحظة الأخيرة أن العالم السمرقندي (ت1122م) يرى أن الفواكه قليلة الغذاء بالنسبة للحبوب واللحوم وقد علل ذلك بكونها سريعة الانحدار وسريعة الاستفراغ وسريعة النفوذ في البدن... مادامت طبيعتها رطبة لينة[4].

وقد أبرز التحليل العضوي لفاكهة التفاح مثلا في العصر الحديث جملة من المقومات الأساسية:

84% ماء، 0.3% بروتين، 0.3% دهن، 9% سكر

---

[1]- جدير بالتذكير أن علم الغذاء اليوم تجاوز نظرية السعرات الحرارية لينحو بالتدريج منحى شموليا يراعي البعد الكوني للإنسان في علاقته الجدلية بالطبيعة (المراجع).

[2]- الطب العربي في القرن الثامن عشر من خلال الأرجوزة الشقرونية، تحقيق وتعليق بدر التازي، تعريب وتقديم عبد الهادي التازي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص: 36.

[3]- في قاموس التغذية وتكنولوجية الأغذية، أرنولد بندر، ترجمة فؤاد عبد العال وآخرين، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود الرياض، 1984، ص: 183- 189. أن كمية البروتين في الفواكه لا تكاد تذكر.

[4]- أطعمة المرضى، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، 578د، ضمن مجموع ، ص: 166-167.
وجدير بالتذكير أن العديد من الفواكه تحتوي على نسب عالية من الدهون والبروتينات نذكر بالأساس اللوز والجوز والكاجو والفلفل السوداني (المراجع).

49 كيلوكالوري (210 كيلوجول)[1]، 5 مجم كالسيوم، 0.3 مجم حديد، 23 مكروغرام فيتامين أ

0.03 فيتامين ب1، 0.2 مجم حمض نيكوتنيك، 4 مجم فيتامين ج لكل 100جم)...[2]

وتتماهى التحاليل العضوية وتتعدد بياناتها وأسسها نظرا لتطور النبات وتفاعل بعضه بعضا وتوليد أنواع من الفواكه بفضل التجارب الزراعية في الحقول والمختبرات.

وهذا ما يجعل باب التحليل الغذائي للفاكهة تتباين نسبه وتتقارب بحسب الصنف والنوع... والمرتبة... وبحسب المنهج والمواد المساعدة...

رابعا ـ مقاربة التقريب بين المعطيات:

وحين نجد أنفسنا أمام منهجين مختلفين قديم متجاوز، ومعاصر متطور؛ فإن مقاربة التقريب بين معطياتهما تتم ـ كما يرى أحد الباحثين المغاربة[3] ـ من خلال أمور ثلاثة:

1 ـ تصنيف الأغذية، 2 ـ النظام الغذائي، 3 ـ خصائص الأغذية

ومن خلال المقاربات نلحظ أوجه التوافق في معطيات الفواكه في سياقها التاريخي أي في استعمالات الفواكه ـ كقيمة غذائية في علاج الأمراض ـ بين الطب العربي القديم والطب الغربي المعاصر، وإدراك

[1] ـ هذه السعرات توجد في 100 غرام (المراجع).
[2]- قاموس التغذية...م. س. ص: 31.
[3]- الطب... من خلال الأرجوزة الشقرونية م. س. ص: 34.

هذا التوافق يجعل حضور رؤية الطب العربي ما تزال فعالة ويؤكد جدواها مدى الإحساس بجدية العلوم العربية والإسلامية ومدى استشرافها إلى مقومات النبات ومعطياته العلاجية من خلال تحليله وإدراك خواصه ومنافعه.

خامسا ـ فاكهة العنب في آثار الدارسين:

وبمثل هذه الرؤية ينهج هذا البحث إلى دراسة فاكهة العنب GRAPES / RAISIN باعتبارها من أكثر الفواكه كمالا وغنى بالمواد الغذائية. ولذلك أولى لها القدماء والمحدثون والمعاصرون دراسات وافية توافقت كثير من إمكانياتها وقدراتها في الغذاء والدواء مما يجعل النتائج والمعطيات منسجمة.

وفاكهة العنب في مثل هذه القيمة الكبرى شأنها شأن فاكهة التين Figtree / Figuier[1]. ونشير في هذا الصدد إلى ما ذكره ابن سينا في أرجوزته:

أفضل ما تثمره الغصون فاكهتان: عنب وتين

وما ذكره ابن الخطيب في كتابه الوصول لحفظ الصحة في الفصول: "أما العنب والتين فسيدا الفاكهة"[2]. كما أشار إلى هذه القيمة ابن رشد في كتابه الكليات[3] والرندي في كتابه الأغذية[4] والغساني في كتابه حديقة الأزهار[5] وعلي بن إبراهيم في أرجوزته الفواكه[6]،

---

[1]- راجع: التداوي بالأعشاب والنباتات قديما وحديثا، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط2، 1991، ص: 107 – 108.

[2]- راجع: حديقة الأزهار...م. س. ص: 205. وخلافا لذلك ما ذكره أحمد بن محمد البرقي (ت 887م) من أن الرمان هو سيد الفواكه الاثنتي عشرة التي ذكرها. انظر كتابه المجالس، النجف، 1974 ص: 451

[3]- الأغذية والأشربة. م س ص: 173

[4] - ن.م. ص 1

[5]- حديقة الأزهار م. س ص: 205

[6]- أرجوزة الفواكه م. س ص: 33

وللسمرقندي مثل هذا التوافق ولكن على نحو أدق" إن العنب شبيه بالتين في قلة رداءة الدم المتولد منه. وهو أفضل من الرطب إلا أنه أقل غذاء من التين[1].

وإدراكا لهذا القيمة الغذائية لفاكهة العنب التي حللها كل من نارودسكي في كتابه العلاج النباتي، وبرنار مكفادن الإخصائي في الطب الطبيعي، وكذا جون فالنيه Valnet رائد الطب الطبيعي في دراسته القيمة عن العنب[2] على نحو ما سنبسطه في هذا البحث الذي لا يستطيع الإلمام بكل ما قيل عن فاكهة العنب باعتبارها نباتا وغذاء ودواء، إذ أن مجالات ذلك تطول وتتشعب. وحسبنا أن نشير إلى بعض النتائج العامة والهامة في سياق موضوعنا عن الفواكه بين التراث العربي وعلم التغذية الحديث في ضوء ما يتطلبه الموضوع من تواصل بين مجالات الفلاحة والصيدلية والطب.

سادسا ـ فاكهة العنب نباتا

اهتم كل من محمد بن إبراهيم الكتبي الشهير بالوطواط (718هـ 1318م) وهو مؤلف كتاب مفتاح الراحة لأهل الفلاحة، وقد زعم محققاه أنه لمؤلف مجهول من القرن الثامن الهجري، وهذا الكتاب في الواقع هو الجزء الرابع من كتاب المؤلف المذكور "مناهج الفكر ومناهج العبر"[3]. كما اهتم أحمد ابن محمد بن حجاج الإشبيلي صاحب كتاب المقنع في الفلاحة، وغيرهما اهتماما بالغا بفلاحة الكرمة، فحددا النواحي الآتية:

أ ـ نوع التربة المناسبة ومدى ملاءمتها لأصناف العنب

---

[1]- أطعمة المرضى م. س ص: 118

[2]- راجع- قاموس الغذاء... م. س. ص: 424- 43 والتداوي بالأعشاب م. س. ص: 243 - 248.

[3]- راجع في الموضوع مقدمة كتاب "عمدة الطبيب في معرفة النبات"، أبو الخير الإشبيلي من تحقيق محمد العربي الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1990، ص: 21.

ب ـ طرق الغرس وتتبع الأجفان وما يصلح لها من أزبال وسبل السقي، مع مراعاة الشهر والفصل وأحوال الطقس والمناخ.

ج ـ العناية بوسائل التركيب والتطعيم وحفظ الطراوة وصنائع الزبيب.

د ـ الحرص على التكوين البيولوجي من لحم وماء ودم وشحم وعجْم وقشر.

هـ ـ مراعاة حالات النمو وتطورها من الحالة النيئة إلى الفجة إلى الغضة إلى الحالة النضجة.

وكل هذه النواحي نهجت الكثير من دقة الملاحظة والتجربة والمعاينة والاختبار. كما حرصت على الكثير من العجائب والغرائب تكتسي حالات الخصوبة بين الإنسان والنبات[1] وحالات تطبيب دموع العرائش (أي ماء الدوالي أيام الربيع) بطيب الكافور[2].

ونلفت النظر هنا إلى قيمة التجارب الفلاحية عند العرب لا فيما يتعلق بفاكهة العنب خاصة بل بسائر أنواع النبات عامة، ولو أن واقع هذه التجارب أصبح بعضه متجاوزا في الفلاحة العصرية[3]، مادام الحرص على قراءة التراث الفلاحي عند العرب ومراجعته يتم في ضوء أربعة سبل:

1 ـ من أجل اكتساب الفائدة التاريخية المتعلقة بعلوم النبات عامة[4].

---

[1]- راجع مفتاح الراحة م.س ص: 212

[2]- ذكر ذلك الطغنرى وابن بصال راجع في الموضوع: المصطلحات الفلاحية في كتب الأندلسية، محمد بن شريفة مجلة المناظرة (الرباط)، عدد خاص بندوة المصطلح التراثي ع، س4 رجب 1414 ـ دجنبر 1993 ص: 31

[3] ـ أصبحت العودة المكثفة للزارعة البيولوجية تستلهم بشكل واضح من مصادر الفلاحة العربية خصوصا المغربية الأندلسية. وقد لاحظت في دراستي لكتابي الفلاحة عند كل من ابن بصال وأبي الخير الإشبيلي أصالة كبيرة في التجارة مع إمكانية العمل بها في الفلاحة العصرية، وهذا مبحث نبيل وجب إثارة الانتباه إليه. (المراجع).

[4 - 3 - 4] ـ ندوة المصطلح التراثي ع، س4 رجب 1414 ـ دجنبر 1993 ، ن م، ص: 25

2 - من أجل إحياء المصطلحات التراثية الصالحة وتطوير بعضها وتوليد بعضها الآخر، لما في ذلك من عون كبير للإسهام في حلول لإشكالية المصطلح، ولما في ذلك من عطاء كثير يسهم في حقول البحث العلمي بمعطيات جلى[1].

3 - من أجل تقوية السليقة اللغوية وتنمية القدرات الإبداعية التي تمكن بواسطتها أجدادنا من وضع ما وضعوا من مصطلحات تصغى إليها الأسماع فلا تستثقلها وتلوكها الألسنة فلا تمجها[2].

4 - من أجل استيعاب وقائع التراث التطبيقي وتجاربه وما فيه من دقة الإنجاز وغرابة التصور اللذين يحثان على الإبداع في ممارسة الفلاحة وذلك لخلق جماليتها وشعريتها.

أما عن طرق غرس العنب وما يتعلق بأحواله وأساسياته فإن الزراعة الحديثة قد استفاضت تجارب واختبارات دعمتها البحوث العلمية والتجارب المختبرية فتناولت كل ما يتعلق بالعنب من الجذع إلى الثمرة عبر الفرع والغصن والعنقود والبراعم والأوراق.. مراعية الطقس والمناخ ونوع التربة...[3].

ولا شك أن التطور العلمي الذي شهده الغرب أفاد الزراعة وحدد مجالاتها. وقد نالت فاكهة العنب اهتماما بالغا لما يستخلص منها من خمور فتطورت زراعته بفضل الوسائل والدراسات المتطورة، وحسبنا الإشارة إلى أهمية ذلك. وطبعا كانت استفادة الغرب من الفلاحة العربية كبيرة حيث أهلت الفلاحة العصرية إلى مراقي التطور والنمو.[4]

---

[1] - Vu: 1 - L'ecole du jardinage, N0 9, Recoltez des Fruits en toute saison/ editions de vergennes P: 61

[2] - Larousse Agricole, publie sous la diretion de jean-Michel clement. Librairie Larousse 1981. PP 1160-1166

نؤكد ما قلتَ: "كانت استفادة الغرب من الفلاحة العربية كبيرة"، وهذا هو الأصل الذي ينبغي التأكيد عليه (المراجع).

سابعا ـ فاكهة العنب غذاء:

إذا كانت لفاكهة العنب تلك القيمة الغذائية المشار إليها آنفا فإن تحليل ذلك في كتب تراث التغذية يتم بالحرص على جملة من الأسس نشير إلى أبرزها:

1 ـ فمن حيث الطبيعة والمزاج فالعنب (الحلو خاصة) حار رطب في الأولى[1] ويعني هذا التحديد أمرين:

أ ـ إن طبيعة ما هو حار رطب تحدد مزاج الدم، وهذا المزاج أكثر مراعاة لسلامة الجسد وأكثر إبعادا عن أضرار التغذية.

ب ـ كون هذه الطبيعة في المرتبة الأولى إشارة إلى أنها أقرب إلى الاعتدال حيث جزؤها وحدُّها في المرتبة الأولى.

2 ـ ومن حيث طريقة تناوله فأجوده أن يمتص ويبتلع ماؤه ليسرع هضمه وانحداره، ونهي عن عجمه وقشره لما فيهما من قبض وريح[2].

3 ـ ومن حيث هضمه فإن مراعاته أساسية في الاستفادة من قيمتها الغذائية إذ أن امتصاص الجسم لمنافع الغذاء يحقق الغاية من الطعام مما يحيل الكيلوس[3] إلى كيموس[4]. ويعني هذا أن معرفة خصوصيات المواد الغذائية في التراث العربي لا تدرك إلا في ضوء إمكانيات هضمها للغذاء. ومن ثم كان العنب مليناً للبطن أي يسهم بقسط كثير الكيفية في سرعة تحول الكيلوس إلى كيموس[5].

---

[1]-عكس العنب الحامض فهو بارد يابس في الثانية (الأغذية والأشربة م. س. ص 224) كما أن عجم العنب بارد يابس (أطعمة المرضى...م. س. ص: 118)

[2]- الأرجوزة لشقرونية م. س. ص: 119

[3]- الكيلوس: الطعام ذا انهضم في المعدة فصار مثل كشك الشعير (الأغذية والأشربة ص: 575).

[4]- الكيموس: الدم المستحيل عن الغذاء (ن. م. ص)

[5]- ارجوزة الفواكه البيت 120

4 - ومن حيث توقيت تناوله فيستفاد منه غذائيا متى تم تناوله قبل الطعام. وإن تم بعده فبشرط ترك الماء. ونهي عن تناوله في آخر فصل الخريف لما يتولد فيه من آثار ضارة بالجسم[1].

5 - ومن حيث تناوله فإن مراعاة التريث حين قطفه ضرورية، إذ أن تناوله إثر القطف يثور البطن ويطلقه ويحدث فيه نفخا، والأنفع تعليقه زمانا صالحا[2].

6 - ومن حيث تحديد لونه وطعمه وشكله فألطفه الأبيض ثم الأسود والأحمر، وأحسنه الحلو مذاقه، والصغير حجمه، والكبير جسمه، والرقيق قشره[3].

7 - ومن حيث فوائده في الصحة العامة فقد ذكر الكثير والكثير منها مما سنبسطه في مبحث لاحق.

هذه جملة من أبرز الجوانب في التراث العربي التي جعلت لفاكهة العنب قيمة غذائية كبرى أشادت بها عديد من المؤلفات، وهي جوانب استجابت في عمقها للنهج العلمي السائد في عصرها.

أما في علوم التغذية المعاصرة فإن الأبحاث ركزت بشكل فعال على القيمة الغذائية لفاكهة العنب وحللت وفق تحليل علمي دقيق كل ما تنطوي عليه هذه الفاكهة من مقومات غذائية عديدة نقف عند بعضها:

1- احتواء العنب على الكثير من الأملاح والمعادن. كالبوطاسيوم والمنغنيز والكالسيوم والصوديوم والحديد والكلور والفوسفور واليود، بالإضافة إلى فيتامين أ وب وجـ. كما تتجاوز قيمته الحرارية أكثر من 900 حروري، أي ضعف ما في غيرها من النباتات[4].

2 - وعند تحليل 100 غ منه نجده يحتوي على المقادير الآتية:

---

[1]- الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية تأليف وتحقيق محمد العربي الخطابي دار الغرب الإسلامي بيروت، ص: 255/2

[2]- أطعمة المرضى، م.س. ص: 118

[3]- أرجوزة الفواكه ص: 79

[1]- قاموس الغذاء ص: 425

81.6 غ ماء، 0.4 غ دهن، 4.3 ألياف، 0.05 ملغ فيتامين ب1، 0.03 ملغ فيتامين ب2، 4 ملغ فيتامين جـ، 0.4 ملغ حمض النيكوتنيك، 0.8 ملغ حمض البانتوتنيك، 17 ملغ كالسيوم، 0.6 ملغ حديد، 0.8 غ بروتين، 16.7 غ كربوهيدرات، 80 وحدة دولية فيتامين أ، 234 ملغ بوتاسيوم، 21 ملغ فوسفور، 68 كيلو سعر حراري[1].

ومثل هذه النسب قد تتغير من وقت لآخر وكذا من صنف لآخر بسبب تطور مناهج التحليل. ونشير في هذا الصدد إلى تحليل آخر قريب من السابق مما يتوفر عليه العنب:

0.7 % بروتين، 0.4% دهن، 62 كيلوكالوري، 0.6مجم حديد، 20 ميكروغرام فيتامين أ، 0.06 مجم فيتامين ب1، 0.04 مجم فيتامين ب2، 0.2 مجم حمض نيكوتنيك، 4 مجم فيتامين جـ (لكل 100غ)[2]

3 - تتوفر فاكهة العنب على مواد لينة تساعد على الهضم، فكأس من عصير العنب يعادل 6غ بيكاربونات الصودا، ونصف ليتر منه يعادل ليترا من مياه فيشي vichy الغنية بالأملاح المعدنية. ومن ثم اعتبر أسهل هضما من الحليب، كما في الليتر الواحد من 120غ إلى 15غ من السكر الهاضم[3].

4 - وفي فاكهة العنب ما يساعد على تنقية الدم وضمان جريانه فكأس منه صباحا ومساء كأنه دوش بيولوجي للدم المعقد الحساس[4].

5 - بالإضافة إلى احتوائها على قدرات كبيرة تقوى الجسم وتصلح لفترات النقاهة من الأمراض الانتانية[5].

---

[2]- نقلا عن التداوي بالأعشاب. م. س: ص: 244

[1]- F.A.O. Food composition Tables- Minerals and vitamins, Food and Agriculture Organisation, United Nations.

نقلا عن قاموس التغذية. م. س. ص: 210

[2]- قاموس الغذاء ص 425

[3]- راجع: التداوي بالأعشاب في المغرب، المصطفى زهويلي، دار النشر المغربية الدار البيضاء 1997

[4] - ن. م. ص.

6- ونظرا للإمكانيات الكبيرة التي تحتوي عليها فاكهة العنب كان يعادل حليب المرأة... ومن ثم سمي عصيرها بالحليب النباتي.

ثامنا ـ فاكهة العنب دواء:

من الصعب أن نستعرض كل الأعراض والأمراض التي ذكرها أو أشار إليها أو وقف عندها كل الصيادلة والأطباء من القدماء والمحدثين والتي تدخل في شفائها فاكهة العنب. وذلك بسبب أن المعرفة الطبية مبنية على تواصل التجارب وإبداء الملاحظات والتحليل في المختبرات... وكل ذلك من شأنه أن يدعم أو يصحح أو يطور ما تلقفه العرب عن غيرهم... وما تلقفه الغرب عن العرب خاصة.

ونشير فيما يأتي إلى المُوافق من المعرفة الطبية والصيدلية في التراث العربي لما جاء في العصر الحديث مما أقره العلماء في أبحاثهم عن فاكهة العنب:

مقوية ومغذية للجسم، ومفيدة في حالة الإمساك، وصالحة لأمراض الكبد والمعدة، وصالحة لأمراض البول والمثانة، ونافعة في السعال وأمراض الرئة، ومفيدة لحدة الصفراء...

ومع هذا التوافق في النتائج والانسجام في المعطيات نجد مميزات تفرد بها العرب في تراثهم الطبي... كما أن هناك مميزات جديدة أضافها الغرب.

فما تميز به التراث العربي في الدواء بفاكهة العنب الحالات الآتية: تقطع العطش، ويكتحل بعصارتها لتقوية حدقة العين، وتذهب الغم وتشرح الصدر....

أما في العصر الحديث فإن فاكهة العنب بفضل التحليلات القيمة التي قام بها العالمان المتخصصان في الطب الطبيعي برنارد مكفادن وجون فالنيه أصبحت علاجا نباتيا لكثير من الأدواء ومنها المستعصية

العلاج... نذكر من بينها: السرطان،[1] وتحديد خلايا الجسم، وفقر الدم، وضعف الأعصاب والعظام، وداء المفاصل والروماتيزم، واضطرابات ضغط الدم، والتهاب الأمعاء، والحامض البولي، وتضميد الجروح.

كما أن فاكهة العنب هي: فاتحة للشهية، ومفيدة في النقاهة، وصالحة لجلد الوجه. وفاكهة العنب في كل هذه الحالات تستعمل لأكل ثمارها وشرب عصيرها وماء عريشها، وصنع محشي بورقها، واستخلاص الزيت من بذورها، وسحق أوراقها الجافة، وتغلية بذورها...

تاسعا ـ معطيات البحث في أهمية العلاج الطبيعي:

وأخيرا فإننا نقصد بهذا الحديث عن فاكهة العنب في التراث العربي والعصر الحديث إلى:

1) الإشارة إلى أهمية العلاج بالنبات أو ما يسمى بالطب الطبيعي التي يتطور انتشاره اليوم في كل أرجاء العالم... هادفا العودة إلى الطبيعة وما تزخر به من نباتات تسهم إلى حد كبير في علاج كثير من الأدواء.

2) الإشارة إلى أهمية الفواكه في التغذية العامة وما لها من قيمة غذائية في العلاج الطبيعي، وقد اخترنا فاكهة العنب نموذجا حيا نظرا لما تتوفر عليه من إمكانيات: التفكه والتغذية والمداواة.

3) الإشارة إلى أهمية المعرفة الطبية في التراث العربي في ضوء مقولة عبد الملك بن حبيب (ت 853م) "خير الطب التجربة" وقد أغنت هذه التجربة التاريخ الإنساني بما حفظته من معارف وما طورته من

[1] ـ أفضل أن يقال المرافقة الغذائية لمرض السرطان حتى لا يعتقد أن العنب له دور واضح المعالم في محاربة السرطان.. أما كل الأمراض المذكورة الأخرى فالأبحاث تؤكد ذلك (المراجع).

علوم وما اتسمت به من معطيات مكنت الغرب من ثروة علمية متطورة.

4) الإشارة إلى ما أسهم به الغرب بفضل تقدمه في علوم الحياة وحرصه على المناهج العلمية ومختبرات التحليل في العناية بالنبات في شتى أوجهه.

5) الإشارة إلى جوانب من التوافق والانسجام بين ما وصل إليه التراث العربي وما وصل إليه العصر الحديث - رغم اختلاف مناهج التصور والتجربة والملاحظة والمعاينة - فيما يتعلق بفاكهة العنب خاصة باعتبارها تختزن مقومات أساسية لعلاج كثير من الأدواء.

6) الإشارة إلى أن علماء الغرب كانوا أكثر حرصا على العناية بتاريخ العلوم والاهتمام بالتراث العربي خاصة. ولعل أبحاث برنار مكفادن وجون فالنيه نموذج لهذا التواصل المثمر.

7) الإشارة إلى أن تاريخ النبات في التراث العربي وإسهاماته الجلى في تاريخ الحضارة الإنسانية سيبقى علامة ناصعة هادية إلى سواء السبيل في شؤون الفلاحة والصيدلية والطب بالرغم مما سجله العصر الحديث في علوم التكنولوجيا من أرقام فلكية كما يقال.[1]

[1]- من المفيد الإشارة إلى أن الاهتمام بتاريخ الطب والزراعة والتغذية لا بد أن يشكل أولوية على أجندة البحث المعاصر في الجامعات العربية قبل فوات الأوان..(المراجع)

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي، مدخل ونصوص، تقديم واختيار محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990
- أطعمة المرضي، محمد بن علي السمرقندي، مخطوط خ. و. الرباط، 578د، ضمن مجموع
- التداوي بالأعشاب في المغرب، المصطفى زهويلي، دار النشر المغربية الدار البيضاء 1997 .
- التداوي بالأعشاب والنباتات قديما وحديثا، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط2، 1991،
- الطب العربي في القرن الثامن عشر من خلال الأرجوزة الشقرونية، تحقيق وتعليق بدر التازي، تعريب وتقديم عبد الهادي التازي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984
- الطب العربي، مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به، أمين أسعد خير الله، بيروت، 1946.
- الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية تأليف وتحقيق محمد العربي الخطابي دار الغرب الإسلامي بيروت، ص: 255/2
- عمدة الطبيب في معرفة النبات، أبو الخير الإشبيلي من تحقيق محمد العربي الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1990،
- غنية اللبيب عند غيبة الطبيب، محمد بن إبراهيم بن ساعد، تحقيق صالح محمد بن عباس، منشورات مركز التراث، بغداد، 1988
- فضالة الخوان في طيبات الطعام، ابن رزين التجيبي، تقديم وتحقيق محمد ابن شقرون، مطبعة الرسالة، الرباط، 1981.

- قاموس التغذية وتكنولوجية الأغذية، أرنولد بندر، ترجمة فؤاد عبد العال وآخرين، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود الرياض، 1984.
- المجالس، أحمد بن محمد البرقي (ت 887م)،النجف، 1974
- مجلة أكاديمية المملكة المغربية، ع7، دجنبر 1990،
- مجلة المناظرة (الرباط)، عدد خاص بندوة المصطلح التراثي ع6، س4 رجب 1414 - دجنبر 1993
- مفتاح السعادة، طاش كبري زاده، طبعة حيدراباد.
- Henri Leclerc les Fruits de France et les principaux fruits des colonies (2ème édition, 1950)
- L'ecole du jardinage, N0 9, Recoltez des Fruits en toute saison/ editions de vergennes
-Larousse Agricole, publie sous la diretion de jean-Michel clement. Librairie Larousse 1981
- F.A.O. Food composition Tables- Minerals and vitamins, Food and Agriculture Organisation, United Nations.

العلوم التطبيقية في جامعة القرويين
بين الماضي المجيد والمستقبل المأمول *

* قدمنا هذا البحث في ندوة جامعة القرويين في أفق القرن الحادي والعشرين، فاس 20-22 نونبر1997 ونشر ضمن أعمال الندوة، مجلة القرويين، ع 11 ص ص 295-310

أولا - استشراف الموضوع:

نطمح في أن يكون هذا الموضوع : "جامعة القرويين في أفق القرن الحادي والعشرين" - مشروع بحث تقوم به خلية عمل - نأمل أن توصي هذه الندوة بإنشائها - ترمي إلى تحقيق الأهداف الآتية، وهي:

1 - إسهام جامعة القرويين في العلوم التطبيقية، ونعني بها ما يتعلق بالطب والفلك والرياضيات والهندسة...

2 - إغناء تاريخ جامعة القرويين بكون علومها لم تكن تنحصر في الفقهيات، بل كانت تتجاوزها إلى العلوم البحثة سعيا إلى المعرفة الكلية الشاملة.

3 - تطوير منهجية البحث لما أنجزه ثلة من العلماء والدارسين ونخص منهم بالذكر الأساتذة عبد الهادي التازي وعبد العزيز بنعبد الله ومحمد المنوني وعبد الوهاب التازي سعود بالإضافة إلى الدكتورين: رينو ولوكلير ... وغيرهم ممن درسوا العطاء العلمي لجامعة القرويين.

4 – لمّ شتات الإشارات المتفرق في كتب الباحثين عربا ومستشرقين وأجانب التي تخص القرويين في مدى إسهامها في مناهج التفكير في مجالات الرياضيات والطب...

5 - الاطلاع على معارف علماء القرويين وتطلعاتهم إلى الدرس العلمي الصرف.

6 - الحرص على المنهجية العلمية للثقافة الإسلامية التي تنطلق من روح الرياضيات والمنطق أساس العلوم نظرية كانت أم تجريبية.

7 - إشعاع علوم القرويين في العالمين الإسلامي والأوربي المسيحي.

8 - البحث والتنقيب عن مجالات الإنجاز والتطبيق فيما يتعلق أساسا بالتجارب العلمية التي تمت في أحضان جامعة القرويين.

9 - جمع ونشر المؤلفات المخطوطة التي كتبها علماء القرويين في العلوم التطبيقية.

وبإنجاز هذه الأهداف ستحقق خلية العمل المنوط بها هذا المشروع بحثا سيكشف لا محالة عن الدور العلمي الذي أسهمت به جامعة القرويين. ولعلنا - من خلال التفكير بأمر هذا المشروع - لا نكتفي بالاحتفاء بذكرى الماضي العلمي المجيد لجامعة القرويين العتيدة في علومها ومواقفها... ولأننا نرنو إلى المستقبل المأمول بتقديم ملتمس يُفضي إلى التواصل بين ماضي المعرفة العلمية وحاضرها، وكذا التكامل بين معارف ما هو تراثي وما هو حداثي من أجل أن تصبح جامعة القرويين جامعة تمكن المعرفة كلَّ وسائلها من المجرد إلى المجرب.

ثانيا- أبعاد المقترح والملتمس:

لا نزعم أننا سنوفي هذا الموضوع حقه من الدرس والتحليل والتنقيب وإنما سنلفت النظر إلى أهمية الموضوع، وذلك من أجل أن نبرر كلا المقترح والملتمس. هذا وقد سبق لنا أن أشرنا في مقدمة تحقيقنا ودراستنا لأرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية لأبي الحسن علي بن إبراهيم الأندلسي المراكشي المتوفى خلال عام 1065 هـ / 1655م.[1]

إن التراث العلمي العربي إذا كان الماضي قد غمره بخبرته وتجربته فإن الحاضر يسعى إلى حفظه وتطويره حتى لا يندثر، مما يجب - كما يقول أحد الباحثين - "درسه والإخلاص في تقييمه لأنه صورة من الماضي وذخر الأجداد وبعض ما خلفوه للأجيال، وهو ما بقي لنا لنحكم به ونستنتج منه ونبني عليه. ومنه نستجلي فكرة واضحة تكشف عن غنى حضارة سلفت وقدر أهلها العلم والعلماء... ومما لا

[1] - أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية لعلي بن إبراهيم الأندلسي المراكشي، تحقيق ودراسة عبد الله بنصر العلوي، ضمن أعمال الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، رأس الخيمة، 1996.

شك فيه أن التقييم والبحوث الجدية والإيجابية في هذا التراث لابد وأن تدر علينا ربحا علميا روحيا كبيرا أو تعطينا حصادا وفيرا، فعلينا ألا نضيع الوقت وألا نهمل الواجب، بل نهبَّ لإحياء تراث عريق لحضارة أذهلت عقول المنصفين وحيرت بروعتها أفكار المتقدمين"[1].

إن هذا التراث العلمي والإسلامي المشار إليه وَجَدَ في جامعة القرويين منذ إنشائها مجالات خصبة بما لها من حضور وفعالية؛ باعتبار طبيعة شخصية علمائها وقدرتهم على المشاركة العلمية؛ إذ المعرفة الشاملة للعلوم الإلهية والطبيعية والرياضية تشكل جوهر العلوم الإسلامية. وفي ذلك كان العطاء المميز للعالم الإسلامي الذي جمع بين كل مجالات المعرفة، وقد حفل التاريخ الإسلامي بعلماء أفذاذ كانوا مثالا وقدوة لتمثل إنسانية المعرفة وإسلاميتها ... ألم يكن الرازي والفارابي وابن سينا وابن طفيل وابن رشد وغيرهم كثير نموذجا لهذه المشاركة التي تصل إلى حد الحذق والمهارة في جل العلوم.. بل والتأليف في كثير من مجالاتها.

ومثل هذا الحضور المعرفي كان سلوكا عاما وفعالا في جامعة القرويين. ولئن غلب الحديث عن الإلهيات بما فيها من سيرة وفقه وتفسير وبلاغة ونحو ... فإن للعلوم الطبيعية والرياضية حضورا على جانب من الأهمية ما دام العلم والدين يشكلان خشبة النجاة فلابد - حسب تعبير أحدهم - من أن "يتعلم " الدين وأن " يتدين " العلم[2].

وجدير بالذكر أن مفهوم الدين يعني التشبث بالعقيدة دينا ومعاملة، وكذا تدبير أمور الإنسان روحا وجسدا.

وعندما نتأمل ما دُرِّس في جامعة القرويين من علوم نجد الكثير منها يتعلق بمجالات المعرفة والفكر والفنون. فبالإضافة إلى التفسير

[1]- مصاعب نقل وحفظ التراث العلمي العربي، سامي خلف حمارنة، مجلة أوراق، ع 1980/3، ص:31،

[2]- جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف، المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، إدارة الشؤون الثقافية، جمع وتنسيق: عبد الهادي التازي، الكاتب العام لمهرجان عيد القرويين، مطبعة فضالة المحمدية، د. ت، ص: 83.

والحديث والفقه والسيرة والنحو والبلاغة واللغة والتصوف والطب والصيدلة نجد على نحو ما يذكره شاهد عيان وهو الإمام المجاهد بن السنوسي (ت 1276 هـ) الذي ورد على جامعة القرويين لأخذ العلم عن رجالها على عهد السلطان المولى سليمان[1]، فعدد من علومها: علم الفرائض والحساب والأسطرلاب وصناعتها والرياضيات والهندسة والهيئة والطبيعة والأرثماطيقي وأصول قواعد الموسيقى والمساحة والتعديل والتقويم وعلم الأحكام والينس والوقف والقواعد الجفرية وأصول الزيرجية والبسط والتكسير والجبر والمقابلة، وغيرها[2].

وتبدو أهمية هذه الإشارة إلى تلك الأصناف المعرفية بكل تداخلها وتكاملها في كونها تجاذبت التأثر والتأثير لدى العالم المشارك المنتمي لجامعة القرويين. ومن ثم كان التكوين العلمي ضرورة ملحة وجد فيها بعض العلماء بعد مرحلة الطلب العام نوعا من التخصص برعوا في مجاله ودرسوا علومه.. بل ألفوا فيه. وتطول لائحة علماء القرويين لو أردنا تعداد أسمائهم، وسنشير إلى بعضهم لاحقا ممن لهم الصدارة في بعض العلوم التي سنقف عندها.

ثالثا- مواجهة إشكالات الموضوع:

غير أن الباحث في واقع هذه العلوم الطبيعية والرياضية في جامعة القرويين يواجه عدة إشكاليات:

1 - إن الإشارات إلى هذه العلوم - باعتبارها علوما تطبيقية - متفرقة في عدة مصادر في كتب التراجم خاصة، مما يحتاج إلى تكشيفها لجمع المادة وتمحيصها.

---

[1]- التعليم بمدينة فاس في عهد السلطان سليمان، محمد منفعة، ندوة الحركة العلمية في عهد الدولة العلوية إلى أواخر القرن 19، منشورات كلية الآداب، وجدة، ص: 63.

[2]- نقلا عن جامعة القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، عبد الهادي التازي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1972، م 3، ص: 726.

2 - إن ندرة الإشارات إلى العلوم التطبيقية في فهارس علماء القرويين[1] مما لو توفر لأعطى صورا شاهدة على حضور هذه العلوم في كيفية أدائها ووسائل تقديمها وأصناف مصادرها وأسماء شيوخها وطرق أسانيدها.

3 - قلة الإجازات العلمية[2] التي من شأنها أن تبسط العلم وقيمته وأن تعرف بصاحب الإجازة وبإذن شيوخه في مزاولة العلم، وكذا بالتزامه بالشروط الخلقية والعلمية في تدريسه وممارسته لتخصصه.

4 - مدى قيام العلماء بممارسة تطبيقية لبعض هذه العلوم والتساؤل عن وسائل الإيضاح في تدريس بعضها.

5 - في وجود عدة مدارس في مدينة فاس مما يفرض معه التساؤل عن علاقاتها بجامعة القرويين من حيث تخصصها في مادة معينة وفي مدى استقلالها عنها أو تبعيتها لها.

6 - لا نقتنع بأن جامعة القرويين كانت تكتفي بما هو نظري في العلوم التطبيقية، وأن ما هو تطبيقي كان يتم خارجها في مراكز أخرى كالمدارس أو البمارستانات وغيرها، رغم إشراف أوقاف القرويين عليها، والأمر هنا يحتاج إلى تتبع واقع العلوم في سياقها النظري والتطبيقي.. في إطار منهجها وإنجازها وتقييمها.

---

[1] -نذكر من بينها مما رجعنا إليه:
- فهرس المنجور، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب – الرباط 1976.
- فهرس ابن غازي، تحقيق محمد الزاهي، مطبوعات دار المغرب – الرباط 1979.
- اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر لأبي سالم العياشي، تحقيق نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب الرباط، 1996.

[2]- من الإجازات الطبية التي وصلتنا: إجازة الطبيب محمد بن الحاج محمد الكحاك.
من مراجع الموضوع: المعرفة الطبية التقليدية بجامعة القرويين، عبد الوهاب التازي سعود، جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي، ندوة تكريمية لعميدها عبد الوهاب التازي سعود، بيت آل محمد الحبابي، مطبعة فضالة، 1996.

7 - إذا كانت القرويين قد أثمر فيها الفقه وتميز بخصوصية نلمس معالمها في العمل الفاسي[1]، فهل لمجالات العلوم التطبيقية ومنها علوم الفلك والرياضيات والطب خاصة من تميز في عطائها ؟!

8 - التوجه المعرفي الذي يمارسه العالم بمحض إرادته ويسعى إلى التثقيف فيه في إطار اهتماماته الخاصة ... ما يجعل الباحث يتساءل عن هذه المعرفة في تلقيها داخل جامعة القرويين أو في متابعتها خارجها.

هذه جملة من الإشكاليات يصطدم به هذا البحث وهي مما يعترض الباحثين أيضا، ونأمل أن تسهم خلية البحث المقترحة في إيجاد إجابات ودراسات تعمق الموضوع وتنقب عن الدفين.

رابعا- مرامي مقاربة الموضوع:

قد يصعب علينا أن نقارب كل مجالات هذه العلوم التطبيقية لأمرين أساسيين:

أولهما، سعة هذه العلوم وصعوبة الاطلاع على منجزها.

والثاني، طاقة استيعاب هذه العلوم وتاريخها تفرض المتخصص أو المهتم بأحد المجالات. ولا يتم ذلك إلا بشرط إلمامه بالتراث العلمي العربي والإسلامي عامة والمغربي خاصة، وحوله سيدور الملتمس الآتي الذكر.

وإلى حين ذلك، فإننا نلمس لأنفسنا العذر في مقاربة موضوع يخرج عن تخصصنا الأدبي.. وما قاربناه إلا لاهتمامنا بجوانب المعرفة والإبداع النيرة في تراثنا المغربي، إذ أن الاطلاع على تراث أجدادنا من علماء القرويين حافل بالمعطيات الفعالة التي تكسب الشخصية العالمة مكوناتها الأساسية.

[1]- راجع حول العمل الفاسي: أرجوزة أبي زيد عبد الرحمان الفاسي، المطبعة الحجرية فاس، شرحها محمد بن أبي القاسم السجلماسي الرباطي، دراسة وتحقيق: بدر الدين الزيتي.

وحسبنا في هذه المقاربة أن نرمي إلى:

1 - التذكير بجملة وافرة من أعلام العلماء الذين اشتغلوا بالعلوم التطبيقية والذين كونتهم جامعة القرويين.

2 - التعرف إلى عدد من المصادر العلمية التي دُرِّست في جامعة القرويين.

3 - إسهام علماء القرويين في التأليف العلمي وما حققوه من خصوبة المعرفة ومن معطيات في البحث.

4 - تحديد بعض المعالم النيرة والهامة في إنجاز جامعة القرويين في مجالي الرياضيات والطب.

خامسا- الرياضيات في جامعة القرويين:

فالرياضيات تعد بمختلف فروعها نهجا تعليميا يكسب طالب العلم المبادئ الأساسية لتلقي المعرفة؛ إذ بمنطقها ونتائجها علمت أسس التفكير السليم ودقة التأمل والاستنتاج. ونشير في هذا الصدد إلى بعض أعلام العلماء الذين نفقت سوقهم في فروع الرياضيات منهم: ابن الياسمين وابن الحباك والصديني والجادري وابن البناء العددي وابن الحاج المهندس والقلصادي وابن غازي وأبو القاسم الفشتالي وعبد الوهاب الفاسي وابن سليمان الروداني[1].

ومن آثار هذه الحركة العلمية في فروع الرياضيات المعالم الأتية:

[1] - راجع تراجم هؤلاء العلماء في جامع القرويين، م.س، على التوالي في الصفحات التالية: 179/1، 481/2، 483، 502/3، 509، 790، 792، 794. راجع في الموضوع: معجم الرياضيات بالمغرب الأقصى، عبد العزيز بنعبد الله، مجلة اللسان العربي، ع 3 غشت 1965، ص ص: 134 – 142.

1 - لقد حظي حساب الفرائض والتوقيت باهتمام بالغ في جامعة القرويين مما يعكس وحدة العلوم العقلية من رياضية وتجريبية ولسانية[1] لما فيها من خدمة الفكر الديني[2].

2 - شيوع الأرقام الغبارية التي أقرها علماء القرويين علامات للأعداد في أوربا والتي نقلها إليها في القرن العاشر الميلادي البابا سلفستر الثاني الذي درس بطليطلة وفاس وأطلق عليها الأرقام العربية؛ باعتبار رقم الغبار - كما يقول ابن الياسمين - " ... من أقصر أنواع الحساب وأفيدها وأوضحها بجودة بيانه وبلوج برهانه"[3]. ودون شك أن نهضة أوربا العلمية قامت على أساس أرقام الغبار المغربية إذ لم تكن للإغريق طريقة منظمة لكتابة الأعداد كما لم تكن للرومان عملية دقيقة في الحساب[4].

3 - إشعاع المعرفة الرياضية التي عرفتها جامعة القرويين في الأقطار العربية الأخرى، من ذلك تدريس بعض المؤلفات المغربية في تونس حيث نجد من بين مقروءات الرصاع كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البنا، وفي مصر حيث نجد من محفوظات أبي بكر الأنصاري منية الحساب لابن غازي[5]. كما نشير في هذا الصدد إلى أن ابن قنفذ القسنطيني الذي تكوَّن في الرياضيات بجامعة القرويين كان محور إنتاجه الرياضي يدور حول المؤلفات المغربية لابن الياسمين

---

[1] - الأرجوزة في الأدب المغربي، عبد الجواد السقاط، مجلة المناهل ع 35 دجنبر 1986، ص: 302.

[2] - الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب، عبد العزيز بنعبد الله، مجلة المناهل، ع 11، مارس 1978، ص: 131.

[3]- راجع كتابه: تلقيح الأفكار في العمل برسوم الغبار، مخطوط خ.ع. 222 ك نقلا عن ذكريات مشاهير رجال المغرب، ابن الياسمين، عبد الله كنون، الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، ص: 23.

[4]- راجع: الطابع العربي في الأرقام الرياضية، محمد السراج، مجلة اللسان العربي، ع 3، م.س. ص ص:64 – 70.

[5]- راجع في الموضوع: نشاط الدراسات الرياضية في مغرب العصر الوسيط الرابع، محمد المنوني، مجلة المناهل ع 33، دجنبر 1985، ص: 91.

وابن البنا شرحا وتعقيبا[1]. ولعل في تتبع هذا الإشعاع ما يعكس القيمة العلمية التي حظيت بها الكتب التعليمية التي عرفتها جامعة القرويين.

4 ـ اهتمام المستشرقين ببعض المؤلفات الرياضية على نحو ما اهتم به المستشرق الفرنسي اريستيدمار الذي نشر في روما تلخيص أعمال الحساب لابن البنا نصا عربيا وترجمة فرنسية سنة 1885م[2].

5 ـ دراسة المصادر الكبرى في تاريخ الرياضيات، ومن بينها كتاب الأصول لاقليدس وكتاب المجسطي لبطليموس، وقد نال الأول اهتماما كبيرا لدى علماء القرويين إلى وقت قريب[3]، وفي طبعه بالمطبعة الحجرية عام 1293 هـ بإشراف الشيخ الطايع البلغيثي[4] عمل علمي جدير بالاهتمام يدل على تواصل معرفي بالشرح والتحليل والتقويم والتعقيب لأقدم المؤلفات الرياضية , وممن أقرأه بجامعة القرويين العلواني[5] ومحمد بن القاضي [6].

ومثل هذا الاهتمام كان نادرا في عصر النهضة بأوربا[7].

أما الكتاب الثاني فإن وجوده بشرح الفارابي في جامعة القرويين يعد أثرا علميا هاما بما أولي له من عناية في البحث والتمحيص وفي

---

[1]- راجع في الموضوع: ظاهرة الشروحات الرياضية في القرن الرابع عشر الميلادي بالغرب الإسلامي ونتائجها، يوسف فرفور، الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، رأس الخيمة 1996.

[2]- نشاط الدراسات الرياضية، م.س. ص: 91، وقام بذلك أيضا: م. السويسي الذي حققه وعلق عليه وترجمه إلى الفرنسية، وصدر ضمن منشورات الجامعة التونسية، تونس 1969.

[3]- راجع في الموضوع: إقليدس في أيد عربية، أحمد سليم سعيدان، دار البشير للنشر، عمان، 1991.

[4]- جامع القرويين، م.س. هـ 87 من ص 752/3.

[5]- نشاط الدراسات الرياضية، م.س. ص: 101.

[6]- أساتذة الهندسة ومؤلفوها في المغرب السعدي، محمد المنوني، مجلة دعوة الحق، ع 2، س 9، دسمبر 1965، ص: 101.

[7]- جامع القرويين، م.س، ص: 730.

الشرح والتعليق لدى علماء الفلك بهذه الجامعة[1]. وممن أقرأه بها ابن سليمان الروداني[2].

6 - ومن العلماء النوابغ الذين عرفتهم جامعة القرويين ابن البناء الذي يحتل مكانة مرموقة في الرياضيات، فبفضل تآليفه الغزيرة وآثاره الجلى في الدرس الرياضي[3] كان له صيت ذائع في العالم إذ شاعت مؤلفاته وتنوقلت علومه. وشهرة ابن البناء مدينة إلى المضمون العلمي لعلوم العدد التطبيقية التي ضمنها كتابه تلخيص أعمال الحساب[4]!.

7 - وبفضل ازدهار العلوم الرياضية بجامعة القرويين كانت جملة من الاختراعات قد استثمرت هذا الازدهار:

فابن الحباك أنشأ الساعة المائية الأولى بمنار جامع القرويين.

وابن الحاج استعين به لصنع ناعورتين مائيتين.

والصديني رسم خطوط الساعة المائية.

وابن العربي جدد المنجانة بالغريفة وزودها بساعات رملية.

واللجائي اخترع اسطرلابا ملصوقا بجدار والماء يدير شبكته على الصحيفة.

والروداني اخترع كرة مستديرة سطر عليها دوائر ورسوما وقد ركبت عليها أخرى مجوفة منقسمة إلى نصفين فيها تخاريم وتجاويف.

وابن شهبون صنف كتابا في الجغرافيا اشتمل على عدة صور وخرائط وبه صورة للأرض وأخرى للقمر.

---

[1]- راجع في الموضوع: صورة الفارابي في المغرب، عبد الهادي التازي، مجلة دعوة الحق، ع 9، س 18، أكتوبر 1977، ص: 92 –101.

[2] - جامع القرويين، م.س، ص: 794/3.

[3]- راجع مؤلفاته في: مؤلفات ابن البناء المراكشي وطريقته في الكتابة، رضوان بن شقرون، مجلة المناهل ع 33، دجنبر 1985، ص ص: 215 – 223.

[4]- ن.م.ص: 216.

وعبد السلام العلمي اخترع الآلة ذات الشعاع والظل[1].

سادسا- الطب في جامعة القرويين

أما الطب فقد حظي بقسط وافر من اهتمام جامعة القرويين بالعلوم التطبيقية باعتبار أن للطب نوعا من القداسة جعلت منه طرفا من العلوم الإسلامية[2]. وقد لقي الطب انتشارا واسعا في أرجاء العالم الإسلامي وكثرت فيه المدارس والمؤلفات وشاعت فيه التجارب والخبرات حتى أضحت المعرفة الطبية لدى سائر العلماء ضرورية ما دام " علم الأبدان مقدم على علم الأديان".

وإسهام جامعة القرويين في الطب إسهام وفير أتاح للثقافة المغربية ممارسات عملية وعلمية ضمنت حضورا مزدهرا منذ وقت مبكر بدءا من القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري. وقد لاحظ لوكلير في هذا الصدد أن المغرب - ولعله يقصد الغرب الإسلامي - أشد بلاد الإسلام عمقا من الناحية العلمية[3].

ومما هو جدير بالذكر أننا نجد بعض المراجع الهامة[4]في الموضوع تردد وجود مدرسة طبية بفاس في الفترة المشار إليها، مما يجعل الباحث يتوخى التنقيب والدرس، فما هي معالم هذه المدرسة؟ وما مدى اعتمادها على تطبيق معرفتها سواء داخل القرويين أو خارجها في المدارس التابعة لها أو لأوقافها؟ !.

---

[1]- راجع جامعة القرويين م.س، على التوالي الصفحات التالية: 481/2، 483، 484، 488، 495، 794/3، 815، 816.

[2]- تعليم الطب بالمغرب والعالم الإسلامي، عبد العزيز بنعبد الله، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، ع 15، دجنبر 1988، ص: 25.

[3]- L. Leclerc , l'histoire de la médecine arabe وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط 1980، وانظر: م.س، ص: 31.

[4] -إشارة وردت في شهيرات المغرب لمحمد الكانوني العبدي نقلا عن فن الإنسان بالمغرب، انظر م.س، ص: 31 والطب والأطباء بالمغرب، عبد العزيز بنعبد الله، المطبعة الاقتصادية، د.ت. (1958)، ص:15.

ولما كانت المعرفة الطبية شائعة لدى جل علماء القرويين فإنه يمكننا الإشارة إلى بعضهم ممن اهتموا بالطب تدريسا وشرحا وترجمة وتأليفا: كعبد الرحمن سقين[1] وأبي الحسن بن الهيدور والحسن المسفيوي وأبي القاسم الغساني وعبد السلام العلمي، وأبي القاسم الفشتالي وعبد القادر بن شقرون وعبد الوهاب ادراق وغيرهم[2].

ويمكن تسجيل بعض المعالم في الموضوع:

1 - إن الطب كان يُدرس فعلا في جامعة القرويين ولم يكن مجرد اهتمام معرفي من لدن علمائها بواسطة جملة من المصادر اليونانية والعربية والمغربية. وهو تدريس كان يعتمد على الجانب النظري في الغالب. وكان يترك للطالب نفسه التردد على العشابين ومصاحبة الأطباء، مع العلم أن الكتب الطبية المدروسة كانت تشخص العلل وتصف الأمراض وترشد إلى وسائل العلاج.

2 - وقد تعددت مصادر المعرفة الطبية في أصولها في جامعة القرويين فكانت كتب أبقراط وجالنيوس وديجينوس تدرس معربة[3]، بالإضافة إلى اعتناء الطلبة بجملة وافرة من الكتب الطبية مثل الكامل للرازي والقانون والأرجوزة لابن سينا وكليات ابن رشد وزبدة الطب للجرجاني والتذكرة للسويدي ومفردات ابن البيطار، وكشف الرموز لابن حمادوش[4] وحديقة الأزهر للغساني[5] ....

---

[1] - الطب والأطباء، ص: 57.

[2] -راجع تراجمهم في جامع القرويين، م.س، وهم على التوالي في الصفحات: 501/3، 514، 520، 816، 790، 800، 802.

[3]- كما أكد ذلك رينو.. تقلا عن الطب والأطباء، ص: 46.

[4]- كما أشار إلى ذلك G. Delphin, Fas, son université et l'enseignement supérieur musulman, Paris 1889 نقلا عن الطب الإسلامي والعلم الحديث، عبد العزيز بنعبد الله، مجلة المناهل، ع. 33، دجنبر 1985، ص: 69. وللعلم فإن كتاب ابن حمادوش 'كشف الرموز" قد ترجمه لوسيان لوكليرك إلى الفرنسية. (المراجع)

[5]- عند ذكر مصادر المعرفة الطبية بالقرويين لا بد من الإشارة لكتاب حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار للوزير الغساني الذي كان مرجعا أساسيا خلال العصر السعدي وبعده. (المراجع)

3 - ودون شك أن للتراث الأندلسي الطبي[1] أثر فاعل في المعرفة الطبية لدى علماء جامعة القرويين. وفي حضور ابن رشد وابن طفيل وابن باجة وابن الخطيب والشقوري وغيرهم تأثير كبير مما دعم الحركة الطبية المغربية، بالإضافة إلى عدد كبير من المؤلفات الأندلسية التي تناولها العلماء والطلبة بالبحث والتحليل.

ودون شك أيضا أن جامعة القرويين - بعد انهيار الأندلس - أصبحت الراعية للتراث الأندلسي والمحافظة على إشعاعه واستمراره، وكان تداول أغلب مؤلفاته الطبية بها مجالا للبحث والدرس والتعليق.

4 - كما عرفت جامعة القرويين بكثرة التآليف الطبية وأسهمت بذلك بحظ في تطوير المعرفة الطبية. وذلك من خلال تذييل العلماء لأرجوزة ابن سينا كابن عزرون ومحمد بن قاسم بن زاكور وادراق ... [2]وكذا من خلال نقد كتابي الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، والنزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة كما في كتابات القادري والكردودي وعبد السلام العلمي.. وللعلماء في ذلك مظاهر التجديد بفضل منهج المتابعة والملاحظة والتجربة مثلما أمد على ذلك رينو ولوكلير في أبحاثهما[3].

ومن الآثار الطبية الجلى لعلماء القرويين التي شُهد لها بالدقة والخبرة نذكر: أراجيز عبد الرحمن الفاسي[4] وعبد الرحمن بن محمد العربي[5] وعبد القادر بن شقرون[1]... ومؤلفات ابن القاسم الغساني[2] وأبي

---

[1]- راجع في الموضوع: الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دراسة ونصوص وتراجم، تأليف وتحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988 (جزآن).

[2]- الطب والأطباء بالمغرب... م.س، ص: 58، 84،82.

[3]- نقلا عن: م.س، ص ص: 69 و85 و86.
- الصحة والطب بالمغرب H.PT Renaud (الجزائر 1902).
- الطب القديم بالمغرب (نشرة معهد الدروس العليا، ع 1).
- تاريخ الطب العربي، م.س، H. Leclerc.

[4]- الاقنوم في مبادئ العلوم، مخطوط. خ. و.

[5]- أرجوزة عبد الرحمان بن محمد العربي، ضمن مجموع مخطوط، خ.ع 2057 د. ص ص 156 - 175.

الفضل العجلاني[3] وعبد السلام العلمي[4]وغيرهم ممن لا يسع ذكرهم في هذا المقام.

5 - ومن ثم غدت هذه المؤلفات وغيرها مرجعا هاما لدى الكثير من العلماء الأطباء بالمغرب كابن عزوز المراكشي في مؤلفه ذهاب الكسوف ونفي الظلمات في علم الطب والطبائع والحكمة[5]. وقد استنتج لوكلير من نقول هذا المؤلف وجود مصنفات عديدة في الطب العربي بالمغرب. ولقيمته العلمية عمد إلى ترجمته إلى اللغة الفرنسية[6].

6 - وقد حفلت خزانة جامعة القرويين بالعديد من المصادر والمراجع التي كانت أساسا للمعرفة الطبية لدى العلماء والطلبة الذين انصرفت اهتماماتهم إلى متابعة ما ألف في التراث الطبي اليوناني والعربي والمغربي[7]، سعيا إلى المعرفة الإسلامية الشاملة التي تجمع بين علمي الأديان والأبدان.

7 - إن عطاء التدريس الطبي بجامعة القرويين، وإن لم نحدد معطياته العلمية التي سبق إليها قبل علم الطب الحديث[8]، فإن حضوره واستمراره بها حتى نهاية القرن التاسع عشر مكن المغرب من إسهام جدير بالاعتبار في وضع أسس لبناء مجتمع متحضر مما حقق بعض مجالات الأمن الصحي..

---

[1]- الطب العربي في القرن الثامن عشر من خلال الأرجوزة الشقرونية، تحقيق وتعليق بدر التازي، تعريب وتقديم عبد الهادي التازي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1404 / 1984.

[2]- حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي 1405 / 1985.

[3]- من مؤلفاته: نزهة الأريب عند من لا يحضره الطبيب.

[4]- راجع من مؤلفاته: ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة أهل فاس، المطبعة الحجرية، فاس 1816 / 1900. وطبعة أخرى أصدرتها مكتبة دار التراث، الرباط 1986.

[5]- مخطوط. خ.ع، 1133 د.

[6]- نقلا عن الطب والأطباء، م.س. ص: 91.

[7]- راجع لائحة المخطوطات الطبية بالمغرب ضمن كتاب الطب والأطباء،م.س. ص ص: 95 – 193، وما يخص خزانة القرويين، ص: 96 و97.

[8]- ن.م.س. ص: 86.

وإذا كان تاريخ الطب بجامعة القرويين خاصة وبالمغرب عامة قد تأثر بظروف الرخاء والاضطراب.. وإذا كان قد تقلصت معالمه بدخول الطب الأوربي فإنه كان حريصا على التواصل مع المشرق والغرب من خلال بعض البعثات[1].. ومن ثم فإن لقيمته العلمية ما يجعله تراثا ثمينا يعد لبنة أساسية من مقومات الحضارة الإنسانية[2].

سابعا- العلوم التطبيقية في جامعة القرويين والمستقبل المؤمول:

وإذا كنا قد بسطنا جملة من معالم الرياضيات والطب.. فإننا لم نرم إلا التذكير بمدى إسهام جامعة القرويين في العلوم التطبيقية التي عرف ماضيها مجْدا.. ما أحوجنا اليوم أن نجعله مستقبلا مأمولا، ما دامت جامعة القرويين "قد حفظت تراث العربية والإسلام في العصور الوسطى وتلقت الأمانة من الأندلس، ثم لم تلبث أن ردتها للحضارة الإنسانية قوية مزيدة"[3].

وإذا كان لنا أن نراعي الأمانة فإن في ماضي جامعة القرويين أكبر الحوافز التي تجعل منها اليوم جامعة عصرية لا تقتصر على ما هو نظري في تلقين العلوم الإسلامية بل تتجاوزه إلى ما هو تطبيقي يحقق المعرفة الإسلامية الشاملة.

ومن ثم يأتي ملتمسنا - الذي أشرنا إليه في بداية حديثنا - متمما لمقترحنا السابق الذكر.

إن ملتمسنا يتعلق بتكامل الدور المعرفي الذي عرفته جامعة القرويين في الماضي والعمل على إقراره في المستقبل القريب - إن شاء الله -. والملتمس يتعلق بدعوة إلى استشراف آفاق جامعة القرويين في القرن الواحد والعشرين من خلال إنجازين اثنين نتطلع إليهما:

---

[1]- ن.م.ص: 86.

[2]- ن.م.ص: 94.

[3]- أثر القرويين في حماية اللغة العربية، أنور الجندي.. جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف ... م.س، ص: 213.

الأول، إنشاء معهد للتراث العلمي الإسلامي يبرز الإسهام الإسلامي في العلوم الرياضية والطبيعية ويتكفل بما يلي:

1 - جمع مخطوطات التراث العلمي في الحضارة الإسلامية والعمل على تحقيقها وتصنيفها ونشرها، بل ترجمتها إلى اللغات الأجنبية.

2 - صيانة الآلات والمخترعات الإسلامية والتعريف بها في معرض دائم.

3 - تشجيع الدراسات في الكليات العلمية بالعالم الإسلامي أملا في إقبال الباحثين على دراسة التراث العلمي الإسلامي.

المصادر والمراجع:

- أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية لعلي بن إبراهيم الأندلسي المراكشي، تحقيق ودراسة عبد الله بنصر العلوي، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي، 1999.
- اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر لأبي سالم العياشي، تحقيق نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب الرباط، 1996.
- إقليدس في أيد عربية، أحمد سليم سعيدان، دار البشير للنشر، عمان، 1991.
- الأقنوم في مبادئ العلوم، مخطوط، ضمن مجموع مخطوط، خ. و 2057 د. ص ص 156 - 175.
- تلخيص أعمال الحساب لابن البنا، حققه وعلق عليه وترجمه إلى الفرنسية م. السويسي، منشورات الجامعة التونسية، تونس 1969.
- تلقيح الأفكار في العمل برسوم الغبار، مخطوط خ. و . 222 ك
- جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، عبد الهادي التازي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1972.
- جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف، المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، إدارة الشؤون الثقافية، جمع وتنسيق: عبد الهادي التازي، الكاتب العام لمهرجان عيد القرويين، مطبعة فضالة المحمدية، د.ت.
- حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي 1405 / 1985.
- ذكريات مشاهير رجال المغرب، ابن الياسمين، عبد الله كنون، الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.
- شهيرات المغرب لمحمد الكانوني العبدي.

- الصحة والطب بالمغرب H.PT Renaud (الجزائر 1902)
- ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة أهل فاس، المطبعة الحجرية، فاس 1816 / 1900، طبعة أخرى: مكتبة دار التراث، الرباط، 1986.
- الطب العربي في القرن الثامن عشر من خلال الأرجوزة الشقرونية، تحقيق وتعليق بدر التازي، تعريب وتقديم عبد الهادي التازي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1404 / 1984.
- الطب القديم بالمغرب (نشرة معهد الدروس العليا، ع 1).
- الطب والأطباء بالمغرب، عبد العزيز بنعبد الله، المطبعة الاقتصادية، د.ت. (1958).
- الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دراسة ونصوص وتراجم، تأليف وتحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988 (جزآن).
- العمل الفاسي، أرجوزة أبي زيد عبد الرحمان الفاسي، شرحها محمد بن أبي القاسم السجلماسي الرباطي، المطبعة الحجرية فاس.
- فهرس ابن غازي، تحقيق محمد الزاهي، مطبوعات دار المغرب، الرباط 1979.
- فهرس المنجور، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب، الرباط 1976.

المقالات

- أثر القرويين في حماية اللغة العربية، أنور الجندي .. مقال ضمن كتاب جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف ....
- أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية لعلي بن إبراهيم الأندلسي المراكشي، تحقيق ودراسة عبد الله بنصر العلوي، ضمن أعمال

الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، رأس الخيمة، 1996.

- الأرجوزة في الأدب المغربي، عبد الجواد السقاط، مجلة المناهل ع 35 دجنبر 1986.
- أساتذة الهندسة ومؤلفوها في المغرب السعدي، محمد المنوني، مجلة دعوة الحق، ع 2، س 9، دسمبر 1965.
- تعليم الطب بالمغرب والعالم الإسلامي، عبد العزيز بنعبد الله، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، ع 15، دجنبر 1988.
- التعليم بمدينة فاس في عهد السلطان سليمان، محمد منفعة، ندوة الحركة العلمية في عهد الدولة العلوية إلى أواخر القرن 19، منشورات كلية الآداب، وجدة .
- صورة الفارابي في المغرب، عبد الهادي التازي، مجلة دعوة الحق، ع 9، س 18، أكتوبر 1977، ص .ص: 92 –101.
- الطابع العربي في الأرقام الرياضية، محمد السراج، مجلة اللسان العربي، ع 3، ص ص: 64 – 70 .
- الطب الإسلامي والعلم الحديث، عبد العزيز بنعبد الله، مجلة المناهل، ع. 33، دجنبر 1985.
- ظاهرة الشروحات الرياضية في القرن الرابع عشر الميلادي بالغرب الإسلامي ونتائجها، يوسف فرفور، الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، رأس الخيمة 1996.
- الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب، عبد العزيز بنعبد الله، مجلة المناهل، ع 11، مارس 1978.
- مصاعب نقل وحفظ التراث العلمي العربي، سامي خلف حمارنة، مجلة أوراق، ع 1980/3

- معجم الرياضيات بالمغرب الأقصى، عبد العزيز بنعبد الله، مجلة اللسان العربي، ع 3 غشت 1965.
- المعرفة الطبية التقليدية بجامعة القرويين، عبد الوهاب التازي سعود، جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي، ندوة تكريمية لعميدها عبد الوهاب التازي سعود، بيت آل محمد الحبابي، مطبعة فضالة، 1996.
- مؤلفات ابن البناء المراكشي وطريقته في الكتابة، رضوان بن شقرون، مجلة المناهل ع 33، دجنبر 1985.
- نشاط الدراسات الرياضية في مغرب العصر الوسيط الرابع، محمد المنوني، مجلة المناهل ع 33، دجنبر 1985.

G. Delphin, Fas, son université et l'enseignement supérieur musulman, Paris 1889

L. Leclerc , l'histoire de la médecine arabe

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط 1980،

فهرس المحتويات

تصدير المـُرَاجع: الدكتور جمال بامي..... 7

تقديم..... 13

إسهام علماء القيروان في العلوم الطبية، ابن الجزار نموذجا ... 15

ثقافة الطفل في التراث العلمي العربي..... 37

الفواكه مصدرا للعلاج الطبيعي في التراث الطبي العربي..... 61

الفواكه بين التراث العربي وعلم التغذية الحديث، فاكهة العنب نموذجا 101

العلوم التطبيقية في جامعة القرويين بين الماضي المجيد والمستقبل المأمول..... 125

صدر للمؤلف:

في صحبة الأدبية المغربية

(1) أبو سالم العياشي الأديب المتصوف، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب 1998
(2) أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية لابن إبراهيم الأندلسي، دراسة وتحقيق. المجمع الثقافي، أبوظبي، 1999
(3) في الأدبية المغربية، فاس 2003
(4) الشعر السعدي: تفاعل الواقع والفكر والإبداع، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2006
(5) في الشعرية العربية من فضاء الذاكرة إلى أيقون العجيب، فاس، 2014
(6) سبتة المقاومة، أصداء الاحتلال ومحاولات تحريرها في الشعر العربي، فاس 2015
(7) في المدحة النبوية المغربية، فاس، 2016
(8) جماليات المكان في الشعر المغربي، فاس،2017
(9) التواصل الأدبي بالمغرب بين الحدث والاستلهام، فاس، 2017
(10) إضاءات علمية في الحضارة الإسلامية بالمغرب العربي، فاس، 2017
(12) جهود عباس الجراري في إثراء التنمية الثقافية المستديمة (كتاب جماعي)، فاس،2017
(13) قائع الندوات العلمية لكتاب سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس (بالاشتراك مع د. حمزة الكتاني) الدار البيضاء، 2007
(14) المذهب المالكي في المغرب: من الموطإ إلى المدونة، ندوة أكاديمية دولية، إعداد وتنسيق (بالاشتراك مع أ.د. حمزة الكتاني) الدار البيضاء، 2010
(15) المذهب المالكي في سياقاته المعاصرة، ندوة أكاديمية دولية، إعداد وتنسيق، (بالاشتراك مع د. حمزة الكتاني ود. محمد العلمي) الدار البيضاء، 2012

في صحبة الأدبية الإماراتية

(1)الشيخ زايد شاعرا مفكرا، فاس، 2014
(2) الشعرية الإماراتية: فروسية المكونات الدلالية والفنية في الفصيح والنبطي
فاس، 2014.
(3) معالم أدبية إماراتية، فاس، 2014
(4) الشيخ زايد في مسيرته الثقافية (تنسيق ندوة)، فاس، 2014
(5) الفاعلية الأكاديمية في الحضور الثقافي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مجموعة البحث في الإبداع والدراسات المغربية الإماراتية نموذجا، فاس، 2014.
(6) في صحبة الدكتور مانع سعيد العتيبة، ج 1 تواصلات ثقافية ، فاس، 2015.
ج2 الأنستغرام من الإعلام إلى الإمتاع
فاس 2017
(7) مانع سعيد العتيبة ناقدا، بالاشتراك مع الدكتور محمد الدناي، فاس 2017
(8) الفاعلية الإبداعية والفكرية في كتابات الدكتور مانع سعيد العتيبة، ط 2
(9) بين الأدبيتين المغربية والإماراتية حضور وتواصل (ندوة أكاديمية) فاس، 2015
(10) السبعون المجاني والمجالي (دراسات مهداة إلى معالي الدكتور مانع سعيد العتيبة بمناسبة بلوغه السبعين) فاس، 2016
(11) الأم في الشعر العربي، أم مانع في شعر الدكتور مانع سعيد العتيبة، (كتاب جماعي)، فاس،2016
(12) الأم في الشعر الإماراتي، شعر مانع سعيد العتيبة نموذجا، فاس، 2017

كتب أخرى

(1) أبو فراس الحمداني وشعره في المصادر والمراجع (بالاشتراك مع أ.د. محمد الدناي ود. عبد العزيز جمعة) مؤسسة البابطين، الكويت 2000

(2) الفروسية الشعرية عند عبد الله باشراحيل، بيروت، 2004

(3) الفروسية الشعرية في إبداع خالد الفيصل، الدار البيضاء، 2008

(4) في صحبة مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، أبحاث وكلمات، فاس، 2014

(2) الحركة الأدبية في الكويت، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري وأشعار رئيسها نموذجا، ندوة دولية، نسق أبحاثها د عبد الله بنصر العلوي وراجعها ذ عبد الجواد العبادلة، الكويت، 2008

(3) الفكر العروبي المعاصر وأسئلة الإبداع في كتابات الدكتور مانع سعيد العتيبة، وقائع الندوة العلمية التكريمية التي نظمتها جامعة فاس ومراكش في ماي 2009، إعداد وتنسيق، أبوظبي، 2009

(4) الدرس الشعري، قراءات في المنجز العلمي للدكتور محمد الدناي، ندوة أكاديمية، فاس، 2015.

(5) البحث عن وطن ، دراسات وتأملات في قصص عبد الإله عبد القادر. تقديم وتنسيق،

قيد الطبع

* أعلام الشعر ومنتخباتهم بالمغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين (5

أجزاء)
* كراسات مغربية
* مدخل إلى الأدب في العصر السعدي بالمغرب
* رحلات مغربية إلى الديار الفرنساوية
* الثغر البشي في بعض أشعار أبي سالم العياشي
* فاس في الشعر العربي
* عياشيات
* رحلات مغربية حجازية
* جراب الكتابة دراسات وكلمات
* الجلاب في كتابات أيام الطلاب
* رماد من الذاكرة

للتواصل:

الدكتور عبد الله بنصر العلوي
الرئيس المؤسس للمركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق أوسطية والخليجية بفاس
ومنسق مجموعة البحث في الإبداع والدراسات المغربية الإماراتية
ص ب 6171 فاس المغرب
Instagram.com/bennesser10
bennesser1@hotmail.com
Mobile: 00212661673611